نفوس حزينة

نـفوس حزينة

مجموعة قصصية

زهـراء طالب

نفـــوس حزينـــة

اسم الكاتبة: زهراء طالب
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – يناير ٢٠١٩ م
رقم الإيداع: 2148 / 2019
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 56 – 9

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

اهداء

إلى قلوب سلمت مفاتيحها للحزن الأليم...

إلى عيون صدعتها العبرات الحارقات...

إلى نفوس استسلمت لليأس...

إلى من اعتقد أن مصيبته الأعظم في هذه الحياة...

أذرف دموعا بين أيديكم...

علها تطبب بعضا من جروح لم تندمل...

زهراء طالب حسن

علّ الموج يجمعنا

لم تكن ليلة لأنساها تلك التي قضينا فيها آخر سويعات لنا أنا وعائلتي في بيتنا الصغير المتواضع القابع هناك وسط حقل احتضنته أشجار النخيل الباسقات. كان علينا مغادرة تلك القرية التي لم تشهد أعيننا غيرها منذ نعومة أظافرنا، بعد أن سيطرت شرذمة متوحشة من المتعصبين على القرى المجاورة، فحوّلت أخضرها رماداً وقتلت رجالها واستعبدت نساءها. ما كان منا إلّا أن جمعنا كلَّ ما نملك من مال لندفعه مقابل أربعة مقاعد كنَّا قد حجزناها في قارب كان سيقِّل الهاربين من الجحيم عبر البحر إلى المجهول.

راحت عيناي تتجولان في أرجاء البيت مودعة آملة أن يكون لنا لقاء بعد حين. أيقظت ولديَّ النائمين كملاكين صغيرين بينما كان زوجي يبادلني نظرات القلق، حانت ساعة الانطلاق. ففي ظلمة اللَّيل الحالكة وتحت وقع إطلاق الرصاص، رحنا نركض بكلِّ ما أوتينا من قوة كسجين مطارد، ركضنا وركضنا حتى وصلنا إلى الشاطئ حيث كانت المفاجأة: كان القارب مهيأ لاستيعاب حوالي العشرين راكباً لكن الصدمة الكبرى أنّ عدد الحاضرين كان قد تجاوز الأربعين !! علت أصوات المعترضين على هذا العدد، فما كان من صاحب القارب إلّا أن قطع نزاع الناس بصوته قائلاً: "هذا ما لديَ، ومن يعترض فعليه الرجوع من حيث أتى!".

راحت نظرات الحيرة تتجول بين الحاضرين الخائفين، أيهما يختارون؛ الرجوع إلى حيث الموت المؤكد؟ أم المخاطرة في قارب قد يبتلعه البحر بمن فيه؟ لم يشأ أحد العودة، فصعدنا جميعا على متن القارب المتراقص، وبالطبع لم تكن عدد سترات النجاة كافية للجميع، آثر زوجي أن يلبسني وولدينا سترالنجاة بينما بقي هو من دون واحدة.

انطلق بنا المركب بعيداً عن الشاطئ وابتسامة الأمل الخائفة على شفاه الحاضرين، راحت الأمواج تتقاذفنا والمركب أشبه بكرة تتدحرج يميناً ويساراً. كنت جالسة وفي حضني ولداي الصغيران اللَّذان كتب عليهما ألَّا ينعما بطعم الطفولة الهادئة، كانت ملامح الخوف على وجهيهما الأصفرين ممزوجة ببرودة الهواء اللَّلاسع الَذي راح يضرب الوجوه التعبة. كنت أنظر إلى الأفق علَّي ألمح يابسة، لكن لم يكن سوى سراب أسود دامس.

اجتمعت الغيوم السوداء في السماء التي سرعان ما رمت بحملها الثَقيل على شكل زخات مطر راح ينساب بغزارة على رؤوسنا العارية، بينما تعالت الأصوات بالجزع والعويل. نظرت مذعورة إلى زوجي، شعرت أن نظرته مختلفة هذه المرة، لم تكن نظرة خوف أو قلق وإنما كانت نظرة الوداع الأخير. كان آخر شيء سمعته منه "سأشتاق لكِ" قبل أن تحول موجة بيني وبينه فقلبت القارب الثقيل وتناثر من فيه في مياه البحر الباردة الهوجاء.

لم أعد أرى زوجي، لكنَّ ولديَّ كانا لا يزالان قربي، شغَّلت طوق نجاتي ثم التفتُّ إلى ولديَّ أحاول تشغيل طوقيهما لكن عبثاً كانت محاولتي، فالطوقان معطوبان، حاولت امساكهما لكنَّ ذراعيَّ خانتاني والموج اجتمع ضدَّي بينما أخذت أصوات الصراخ "أن أنقذينا يا أماه!!" بالتضاؤل حتى انقطعت، فأغمضت عينيَّ مغشيَاً عليَّ ظناً مني أني ذاهبة إلى حيث ذهب زوجي وأطفالي.

لم يبد أنه قد مضى وقت طويل حتى هدأت العاصفة وأشاحت الشمس بغَزْلِها الذهبيّ سحب السماء معلنة يوماً جديداً. فتحت عينيَّ المرهقتين لأجد نفسي على شاطئ وعند رأسي مجموعة أقدام كبيرة، رفعت رأسي بتثاقل لأستطلع القوم وهناك كانت مصيبتي الكبرى، لقد قادني البحر إلى أرض قد دنسها المتعصبون وسيطروا عليها! سمعتهم يقولون: "إنها غنيمة جديدة... يا له من نهار جميل". راحت ضحكاتهم القذرة تشقّ أذنيَّ وهم يقتادونني رهينة إلى عرينهم.

في مكان ليس ببعيد عن الشاطئ وفي بيت طينيّ مقسّم إلى غرف عدة، وجدت نفسي محتجزة في إحداها، كان الخوف والرعب يملئني، كانت غرفة صغيرة خلت من كل شيء، لم يكن فيها غير باب حديديّ محكم الإغلاق. كانت صرخات نساء تنبعث من الغرف المجاورة، لقد كانت أصواتاً مؤلمة مزقت قلبي وزادتني خوفاً من مصير محتوم. رحت أدعو ربي أن ينجيني مما أنا فيه. صليَّت وصليَّت وتذكرت زوجي

وأطفالي ونحبت حتى جفَّت مقلتاي، لكنَّي ملأت قلبي أملاً أنّ ربي لا يترك عباده فتوكلت عليه.

مرَّت ساعات طوال وأنا على تلكم الحالة حتى بدا لي أن أولئك قوم لا ينامون؛ فجلبتهم لم تنخفض وأصواتهم القذرة لا تزال تصدح في الأرجاء، وبينما أنا على حالي ذاك، وإذا بالباب يفتح ليدخل منه رجل ضخم الجثة، سمين البطن، غطَّى الشعر جبينه بينما غطت كثافة الحاجبين عينيه، أما لحيته، فقد كانت بيضاء طويلة. دخل بينما كانت الابتسامة القبيحة تكشر عن أسنانه الصفراء. أقفل الباب وراءه بالمفتاح ووضعه في جيبه بينما راح يترنح في الغرفة، لقد كان ثملاً تفوح منه أقبح الروائح. توجَّه نحوي بخطوات متراقصة، فانتفضت من مكاني رحت أركض في الغرفة الصغيرة، كنت أشبه بفريسة ضعيفة تحاول الخلاص وهي آيسة. بقيت على حالتي تلك بضع دقائق، فما كان من ذاك الوحش إلّا أن وقع مغشيَّاً عليه من كثرة السُكْر.

دهشت مما رأيت بينما راح الأمل ينبعث في قلبي من جديد. لمع في عيني سكين كان قد تخصَّر به ذلك الرجل، استللته ورفعته عالياً أريد قتله، خانتني قوتي أولاً لكنِّي سرعان ما استجمعت قواي بعد أن تذكرت قريتي وبيتي وعائلتي وكل ما أنا فيه، فانبتُّ السكين في قلبه. شعرت لحظتها بالسعادة والانتعاش، ثم رحت أفتش في جيوبه النتنة حتى استطعت الوصول الى مفتاح حريتي. ركضت إلى الباب وفتحته،

كان الجميع قابعون في سُكْرهم أحياء أشبه بأموات، عدوت بسرعة وبكل ما بقي في جسدي من قوة حتى وصلت إلى الشاطئ. رأيت الشمس تبزغ في الأفق والبحر هادئ راحت أمواجه تدغدغ قدميَّ وتلاطفهما وكأنها تعتذر لي مما بدر عنها. التفتُّ ورائي لحظة، فوجدت الأرض قد طردتني من باحتها بعد أن دنسها الأعداء. صوبت نظري إلى البحر ثانية. سمعت صوتاً عذباً يناديني، استرقت السمع، لقد كان صوت ولديَّ الحبيبين أن هلمّي إلينا يا أماه فقد اشتقنا إليك. إن ماء البحر بارد، فتعالي ودفئينا بحنانك.

سرت باتجاه البحر الذي راح ماؤه يغمرني شيئاً فشيئاً، بينما مسحت الأمواج آثار أقدامي على الشاطئ. غمرني الماء والابتسامة على وجهي ولسان حالي يقول: أنا قادمة يا زوجي ويا أطفالي ... أنا آتية إليكم، فعلّ الموج يجمعنا!".

شظية في مسمار

انتهت الحرب! كم كنا سعداء ونحن نعود إلى مدينتنا التي احتضنت السلام بعد أشهر ثقيلة خيم فيها الصراع والتنازع. وقفنا أمام بيتنا الصامد بين البيوت المتهالكة، بدا فخورا بذلك الصمود بينما استسلم الكثير من البيوت المجاورة لتلك القنابل والصواريخ التي ألقت وابلها على حيّنا بلا هوادة. بدا بيتنا رائعا على الرغم من كم الرصاصات التي طبعت بصماتها على جدرانه عنوة حتى شوهتها!

كانت حديقة البيت الأمامية مكتظة بكل تلك الشظايا على اختلاف أحجامها. كنت طفلة جامحة حينها ما إن وقعت عيناي على الشظايا حتى اندفعت أجمعها!

احذري يا ابنتي! قد تكون لا تزال خطرة.

مجرد شظايا يا والدي!

لا تستهيني بها ابدا!

سأجمعها فقط وأضعها في هذا الكيس وأسلمها لك يا أبي.

حسنا إذن.

كنت مستمتعة وأنا أجمعها بيدي الصغيرتين، أردت للحديقة أن تستعيد بهاءها بعيدا عن مظاهر الحروب، اعتقدت بعدم وجوز تطفل تلك الشظايا على حرمة الحديقة التي لا تحلو إلا بأزهارها.

تفضل يا أبي، ها قد انتهيت منها جميعا.

أحسنت يا حنان! ألم تغفلي عن إحداها؟

أبدا يا أبي!

دخلت غرفتي وتأكدت من إغلاق بابها، دسست يدي في جيبي أخرج سري الصغير لأودعه مخبأه الجديد، كانت شظية صغيرة أشبه بمسمار معدني، وددت الاحتفاظ بها لكنني كنت على يقين من أن والدي لن يرضى بذلك مطلقا فقد كان حازما بشأن تلك الشظايا. اعتقدت إن الاحتفاظ بواحدة لن يضر أحدا شيئا خصوصا أنني سألقي بها في غياهب درجي!

مرت سنوات عديدة تمكنت فيها أغصان الياسمين من حجب آثار الأحافير التي خلفتها الرصاصات على جدران بيتنا الخارجية، كنت أعتقد بقدرة الطبيعة على تضميد الجراحات. كنت فتاة تحب المغامرة، لا أتردد في خوض واحدة ما أن تواتيني الفرصة لذلك، كأن أتعمد إخراج ذلك السر الدفين الذي استطعت كتمان أمره عن الجميع والنظر إليه نظرة الانتصار! قررت يوما إظهاره إلى النور، لم يعد يعجبني بقاء مسماري (كما كان يحلو لي تسمية الشظية بالمسمار) في ذلك الدرج المظلم، لم تكن كشف حقيقته بهذه البساطة أمرا سهلا، كنت أعلم إنه سيلاقي الاعتراضات. عمدت إلى إضفاء بعض التغيرات عليه، قصدت طلاء الأظافر، كنت أفضل اللون الزهري بلا منازع، لم أتردد في طلائه فبدا رائعا مع ذلك الشريط الأحمر الذي

عقدته بأناقة في منتصفه، كنت أشعر بالثقة وأنا ارتدي المسمار في قلادة بدت غاية في الجمال والتي سرعان ما جذبت إعجاب الآخرين!

لم تعد تلك القلادة تفارقني، ربما كان التحدي والعناد ما دفعاني إلى التعلق بها، توالت السنوات والقلادة لا تفارق رقبتي إلا قليلا، كدت أنسى أمر ذلك المسمار الذي تخفي هويته المزيفة شظية لفظتها إحدى قنابل الحرب!

كان يوما صيفيا شديد الحرارة بدت فيه أشعة الشمس كاللهب الحارق، كنت مستلقية على فراشي أحاول التزود ببعض الهواء البارد من ذلك المكيف الذي بدا يائسا في معركته ضد حرارة شهر آب المشتعلة.

كان سريري يجاور النافذة التي لم تبخل بقذف كل الأشعة المارة فيها إلى داخل غرفتي، لم أكن أحب الستائر أبدا، لطالما شعرت بالضيق ما إن أغلقها لذلك تقبلت أمر الجلوس بين يدي الشمس متصنعة الاستفادة من ذلك الحمام الشمسي على إغلاق الستائر!

رحت أقلب نظري في جوالي متناسية كل ذلك الحر، كان بارعا في قدرته على انتشالي من واقعي إلى عوالم أخرى فتارة أبحر في بحر الموضة وأخرى أجدف في بحار المنوعات وأحيانا أغوص في قراءة قصة وهكذا.

انتبهت إلى الإشعار الذي ظهر على شاشة الجوال يخبرني بانخفاض مستوى البطارية، كنت لم أنتهي بعد من قراءة المقال الذي جذبتني كلماته بشدة بينما لا تزال الشمس ترميني بأشعتها الحارقة، لم أجد بدا من ربط الجوال بشاحنه بينما أتابع قراءة المقال بشغف.

لم أعر نداءات والدتي للنزول استعدادا للغداء اهتماما، بدت الحرارة المنبعثة من الجوال موازية لحرارة الشمس، لكن المقال لم ينته بعد، عزمت أمري على النزول ما أن أنهي ما بدأت. سمعت صوتا أشبه بصفير بعيد، شككت بأذني اللتين ربما تكونان قد أصابتهما حرارة الشمس بشيء من الصمم! دققت السمع هذه المرة، ظننت أن الصفير منبعث من جوالي الذي بلغت حرارته حدا لم أعهده مسبقا، قربته من أذني، لم يكن هو مصدر الصوت أبدا! حاولت تجاهل الأمر لكن الصفير راح يعلو تدريجيا، وضعت الجوال جانبا بينما رحت أقلب بصري حائرة في الغرفة، مرت بضع لحظات قبل أن أدرك مصدر الصوت، إنه مسماري الوردي، نفضت القلادة عني بسرعة، قربت المسمار من أذني، ارتفع صفيره بغضب، ربما تكون الذبذبات المنبعثة من جوالي الملتهب هي ما بثت الحياة في ذلك المسمار النائم في سبات بعيد. ألقيت نظرة أخيرة على المرآة قبل أن يدوي انفجار في الغرفة بعدما خرج المسمار عن صمته كل تلك السنوات ليكمل مهمة كان قد ابتدأها عندما زرع في حديقة منزلنا!

في قلبي روح تحترق

نشأت في قرية بعيدة قابعة بين الجبال متباهية بلونها الأخضر الذي تزدان به على مدار العام. هناك بين السهول تقبع مساحات شاسعة من حقول الرز الغنية حيث أصوات المزارعين يصدحون بأغان توارثوها عبر الأجيال كما توارثوا زراعة الأرز.

كنت من الفتيات القلائل في قريتي ممن كان لهن حظ في الدراسة، كان والدي يحثني على التعلم ظنا منه إن في ذلك فرصة لحياة أقل عناء من تلك التي نشأت فيها. غدوت معلمة في المدرسة الابتدائية الوحيدة في تلك القرية ذات الشوارع المتعرجة، لم يرد القدر لي أن ابتعد كثيرا عن زراعة الأرز فوهبني زوجا اتخذ من موروث عائلته بزراعة الأرز مهنة. كنت راضية قانعة حامدة، رزقت بطفل ملائكي أضاف لحياتي طعما حلوا فبدت الحياة ناعمة على خشونتها والأيام فرحة على الرغم من متاعبها.

لم تستمر الحال هكذا طويلا، بدأ كل شيء عندما اتخذنا القرار في الانتقال إلى المدينة، كان ذلك لمرض أصاب ولدي الوحيد، غياب العناية الطبية المتقدمة في القرية جعلنا نودع أيامنا في القرية إلى صندوق الذكريات. كانت المصاعب بانتظارنا هناك إذ لم يكن من السهل على رجل امتهن الزراعة أن يجد عملا في تلك المدينة المزدحمة.

لم تكن الأبواب موصدة أمام زوجي وحسب فقد كان طابور العاطلين عن العمل من المعلمين طويلا فاضطررت إلى الالتحاق به بعد أن أوصدت أبواب العمل في وجهي!

سأسافر بعيدا يا عزيزي؟

إلى أين؟

أتذكر المكتب المختص بجلب العاملات الذي قدمت أوراقي إليه قبل شهر؟ لقد اتصلوا بي اليوم وقالوا إنهم بحاجة إلى عاملة بشكل مستعجل ويبدو إن اختيارهم وقع عليّ.

خادمة يا نيلي؟

العمل ليس عيبا يا عزيزي! لن أشعر بالأسى أبدا ما دام يدر عليّ رزقا يمكننا من الاستمرار في علاج ولدنا. أليس كذلك يا زوجي؟

كانت تلك المرة الأولى التي استقل بها طائرة، كانت نفسي مضطربة وأنا أجاور النجوم، بدت السماء التي حطت الطائرة تحتها مختلفة عن سماء بلادي، فالغيوم كثيفة هنا حجبت تلك الزرقة التي أعتدها والشمس حارقة لابد من الاختباء منها.

كانت عائلة من أبوين وثلاثة أطفال صغار يقطنون في شقة كبيرة في الطابق السابع، بدت الأعمال الموكلة إلّي طبيعية لولا تصرفات سيدة البيت التي بدت عصبية المزاج، ناقمة على الأيام، كنت بالنسبة

إليها مصبا تصب فيه غضبها لتفرغ ما في جعبتها من كلمات جارحة وجدت في تحملها بدا لا مفر منه إن أردت الحفاظ على وظيفتي.

كانت تتعمد إذلالي في كل الأعمال التي توكلها لي، صبرت على ذلك الهوان الذي سرعان ما تعدى إلى الضرب والتعذيب بشكل من الأشكال كتجويع وحرق بالسجائر ومنعي من الذهاب إلى دورة المياه وغيرها الكثير. فما أن تدخل المرأة في عراك مع زوجها سرعان ما ينتهي بضربه لها حتى تلتفت إليّ وكأنها تريد تحويل الضربات إلى جسدي الهزيل الذي لا يملك غير استقبال الضرب

باستسلام مهين. كانت الرسائل التي تردني من زوجي يطمئنني بها عن صحة ولدنا وتقدمه في العلاج بلسما لجراحات نفسي المعذبة بعذاب الغربة والمهانة.

مرت أيام عديدة لم تردني فيها أخبار عن زوجي وولدي، بدا الأمر مريبا، راحت الأفكار السوداء تفتك بي، وجدت نفسي حائرة أكاد أختنق، زاد الطين بلة عندما صرخت الزوجة غاضبة:

أين خاتمي الذهبي المرصع بالألماس؟

لم أره يا سيدتي؟

كاذبة وسارقة!

لست كذلك يا سيدتي!

سنرى ما تقولين عندما تأتي الشرطة لاعتقالك يا سارقة.

لم تكن دموعي الحارة وتوسلاتي عند قدمها كافية لتصدق براءتي، بل اكتفت بأن ركلتني وحبستني في غرفتي كي تضمن عدم هروبي بينما تستدعي الشرطة لاعتقالي.

أي كابوس كنت أعيش لحظتها وأي غمامة سوداء كانت تستعد لقذف وابلها فوق رأسي الأجرد من الأمل بالنجاة؟ هناك رن هاتفي وقد ظهر اسم أخي على شاشته الباهتة، بدا اتصاله غريبا فهو لم يعتد مكالمتي قبلا، دارت الأفكار السوداء في رأسي المضطرب ثانية وأنا أضع الهاتف على أذني أنتظر سماع صوته.

نيللي...

تقطع صوته المرتعش الذي خنقته العبرات الحرّى، لم أستطع تحرير الكلمات من فمي الذي بدا قاحلا من العبارات.

نيللي... إنه زوجك وولدك! تعرضا لحادث سير وقد قضيا نحبهما فيه... آسف يا عزيزتي!

انقطع صوته بالبكاء ثانية بينما تدحرج الهاتف من يدي أرضا، شعرت بتخشب أصاب جسدي، لم أعد أرى ما حولي فقد بدت الغرفة مظلمة بعدما اكتست بلون أسود غشيها وغشيني. تناهى إلى مسمعي صوت الزوجة وهي تستدعي رجال الشرطة وراء هاتفها:

في بيتي سارقة!

لم أتمالك نفسي بينما تمردت معدتي لتخرج ما في داخلها من بقايا طعام، كان قلبي مضطربا، بحثت عن ورقة، دونت بعض الكلمات القليلة، أدرت رأسي في الغرفة أحاول العثور عن شيء معين، شيء يحررني من قيود قلدها الزمان رقبتي عنوة، لم أجد غير تلك النافذة الصغيرة، بدت محكمة الاغلاق، كنت قد عزمت أمري، كان تحطيم الزجاج باستخدام ذلك الكرسي الخشبي سهلا، نظرت إلى السماء، كانت لا تزال محجوبة بالغمام الكثيف، لمحت طائرا محلقا في الأفق، أردت اللحاق به، أرسلت ذراعي إلى الأمام بينما أغلقت عيني ورحت أسبح في الفضاء.....

ما الذي حصل؟

لقد قفزت المجنونة من النافذة يا سيدي بعدما خافت من العقوبة!

هل تأكدت من أنها السارقة فعلا؟

حسنا، لقد اختفى خاتمي، لابد من أن تكون الفاعلة!

ما هذه الورقة الموضوعة جانبا؟

شرع الضابط بقراءتها:

لم أسرق شيئا، يمكنكم تفتيش حاجياتي والتأكد، لم انتحر خوفا، بل لأنني سأمت الحياة بعدما فقدت الدافع للعيش فيها، فضلت اللحاق بعائلتي في السماء! أرجوكم، رفقا بالعاملات في بيوتكم، لسنا

عبيدا نساق، لنا أرواح تسكن أجسادنا، لنا أحباب نشتاق إليهم، لنا حياة خلفناها وراءنا لنا آمال وآلام.

هزت الزوجة رأسها استخفافا بتلك الكلمات بينما دخل زوجها الغرفة وقد علته الدهشة مما يدور في بيته، راح يبحث عن إجابات في عيون زوجته التي قالت:

لقد سرقت خاتمي الذهبي المرصع بالألماس ثم قتلت نفسها بعدما واجهتها بجريمتها.

ضرب الرجل على جبينه في استدراك وهو يخرج شيئا من جيبه:

أيتها المجنونة الطائشة! أتقصدين هذا الخاتم؟

فوبيا القطط

كوابيس مرعبة تلك التي طالما قيضت نومي وحولت سريري إلى مجلس تعذيب لا راحة. أفزع في مناماتي وأنا ألهث كمن كان يجري لوقت طويل بعدما تسارعت دقات قلبي المسكين الذي يستغرق بضع دقائق ليميز الحقيقة من المنام فتهدأ جرعات الأدرينالين المنصب بغزارة في دمائي.

لم تكن مكانتي الاجتماعية كدكتور متخصص له منصبه في الجامعة ويحضر محاضراته المئات من الطلاب وتقام على شرفه الندوات لتسمح لي بكشف سر تلك الكوابيس التي راحت تضيق عليّ بشكل متزايد حتى انعكست على حياتي اليومية.

لطالما راودني ذات الحلم الذي يبدأ بعينين خضراوين دائريتين صغيرتين تتوهج لمعانا في الظلام الدامس فتغدوان كمصباحين نفاذين مع تلك اللمعة المخيفة وذلك الفم الذي سرعان ما يكشر عن أنياب حادة تضيف حركة المخالب إليه رهبة في أساريري. إنها تلك القطط التي تفرض زيارتها لي في أحلامي والتي راحت أعدادها تتزايد ليلة بعد أخرى حتى بت أفزع من منظر القطط إن صادفتني إحداها في الشوارع فرحت أتجنب السير في الأحياء الضيقة حيث القمامة تكون فيها مرتعا للقطط السائبة التي قد تنافس البشر في انتشارها!

لم أعهد نفسي أخاف من القطط أو أي شيء آخر، بل لطالما استهزأت من أولئك الذين يعانون من أي شكل من أشكال الرهاب، كالخوف من الظلام أو المرتفعات أو حتى القطط! لا أعلم ما الذي جعل نفسي تتمرد على نفسي لتجعلها خائرة فزعة أمام ذلك المخلوق الصغير الذي كان بإمكاني رفسه بكل بساطة بقدمي!

حاربت فكرة طلب المساعدة مرارا إلا إن تأزم الأمر دفعني لرفع راية الاستسلام. كنت جاسا في غرفة الطبيب النفسي الذي راح يجمع بضع معلومات محاولا كشف حقيقة تلك المخاوف والأحلام:

حدثني عن طفولتك يا سيدي.

حسنا، لا أذكر الكثير عنها. كنت في الرابعة عندما ماتت والدتي، علمت إن والدي قضى نحبه بينما كان ينهي فترة حبسه في الزنزانة. أذكر إن جدتي لأمي تولت رعايتي وأخي الصغير بضع الوقت حتى توفاها الله. انتقلت بعدها لدار للأيتام حيث نشأت هناك وبدأت مشوار حياتي بعدها بكل اجتهاد حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن. هذا كل ما أذكر فعلا.

ألا تتذكر حادثة بعينها عندما كنت صغيرا تعرضت فيها لموقف ما جعلك تخشى القطط؟

أبدا!

يمكنني إعطاؤك بعض المنومات التي ستساعدك حتما في الحصول على بعض السكينة لكن لأكن صريحا معك يا سيدي، لن يكون ذلك علاجا وإنما تستر على الأعراض! إن أردنا العلاج فعلا لابد من معرفة الأسباب وراء تلك الأحلام.

وكيف ذلك يا دكتور؟

سبر الماضي!

لم أفهم!

يلجأ الطبيب النفسي أحيانا إلى الغوص في ماضي المريض عن طريق التنويم المغناطيسي، وبذلك قد يكتشف حلقة مفقودة تمكنه من التوصل إلى العلاج الأمثل.

يبدو الأمر محيرا فعلا!

عليّ الحصول على موافقة إن أردت خوض التجربة.

حسنا، سأوقع بموافقتي وليكن ما يكن، المهم أن أتخلص نهائيا من تلك العقدة، رهاب القطط!

ما أن أنتهي من العد ستكون قد رحلت إلى عالم اللاوعي، ستشاهد مقاطع مختلفة من ذكرياتك المخزنة في مكان ما من عقلك، عليك الولوج في كل باب تواجهه وإخباري بما تصادف. اتفقنا؟

حسنا!

١،٢،٣. أنت الآن تسير في ماضيك، تبحر في بحر الذكريات البعيدة جدا، أخبرني بما يحدث.

أرى طفلا صغيرا في الرابعة، إنه أنا بلا شك. وتلك والدتي ترضع طفلا صغيرا ملفوفا بقماش أبيض، يبدو إننا كنا نعيش في غرفة صغيرة داخل كوخ حقير من القش. ها هو الباب يفتح، دخل منه رجل ثائر يزمجر مطلقا الشتائم، اذكر تلك العينين المخيفتين، إنه والدي. أرى والدتي تنهض فزعة وقد ألقت الرضيع بين يدي، راحت تهرول لتضع الطعام أمام والدي، وقفت إلى جانبه كمن ينتظر صدور الأوامر.

أتسمين هذا طعاما يا امرأة؟

ما به يا زوجي؟

ألا تعلمين أنني لا أطيق الفاصولياء؟ كيف لك أن تتجرأي على طبخها يا غبية؟

لقد نفد الطعام عندنا يا عزيزي ولم أجد ما أطبخ فاضطررت إلى طهي ما تبقى عندي من الفاصولياء!

غبية!

أرى والدي ينهال على أمي ضربا، لا زلت جالسا عند زاوية الغرفة الرطبة، ها هو يشدها من شعرها ويطرحها أرضا، تصرخ وتستغيث، يزداد عنفا مع ذلك الصراخ، أراه يدفعها نحو الحائط، إنها تسقط وقد غطت الدماء جبينها...

ماذا تشاهد أيضا؟

إنه يرفعها إلى السرير، يتأكد من موتها المحقق، يلتفت إلي ويقول: أمك نائمة يا ولد، عليك ملازمتها وأخيك، قم بإعطائه بعض الحليب إن بكى، سأذهب الآن وأعود بعد قليل!

أرى الباب يصفق بقوة بعدما غادره أبي، أقلب نظري بين أمي الراقدة والدماء تغطي وجهها وأخي الرضيع الذي سرعان ما راح يبكي!

أرى نفسي نائما عند نفس الزاوية من الغرفة، لا يزال أخي في يدي ورضاعة الحليب أيضا، أستطيع شم رائحة نتنة انتشرت في الغرفة لا أعرف مصدرها! لا أدري كم من الوقت مرّ على وجودي على تلك الحالة هناك، يبدو إن الباب لم يكن مقفلا بإحكام، أظنه أبي قد عاد، ليس هو. أرى قطة تدخل ببطء إلى الغرفة وهي تتبع حاسة الشم عندها، يبدو إنها اهتدت إلى الرائحة المنتشرة في الغرفة، تلاقت عيني بعينيها، عينان خضراوان دائريتان، تبدوان لامعتين في ذلك الظلام الذي لف الغرفة. تبوء محاولاتي بالفشل وأنا أحاول طردها،

استسلمت لتلك الأنياب المكشرة والمخالب الحادة المخيفة التي تهددني بها. تتجاهلني وتتجه نحو أمي النائمة هناك، قفزت القطة لتعلو صدر أمي التي لا تزال نائمة، يبدو إنها لم تشعر بوجود القطة، راحت القطة تلعق الدم من جبين أمي، أشاهدها تغرس أنيابها لتقضم أنف أمي..... أرجوكم ساعدوني! القطة تأكل أمي!

١،٢،٣ استيقظ الآن!

فتحت عيني بعد أن صفق الطبيب يستدعيني من عالم اللاوعي. كان جسدي لحظتها مبتلا بعدما تصببت عرقا، درت بعيوني في أرجاء الغرفة، انتفضت من السرير وتوجهت نحو المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط. دققت النظر في وجهي وكأنني أكتشف تقاطيعا جديدة ليس لي عهد بها، مررت يدي على تلك الخطوط المبعثرة على جبيني، تعرفت على تلك العينين، كانتا ذات العينين المدهوشتين اللتين رأيتهما لذلك الطفل المسكين. زفرت زفرة لم أستطع حبس دمعتي معها، أملت رأسي إلى الطبيب الذي بدا حائرا وقلت:

أتعلم يا دكتور، كنت مخطئا في سبر أسرار الماضي الذي نجحت الأيام بطمره لكنه الآن عاد ليطفو على سطح حاضري بكل عنجهية مقيتة. كنت أعيش منامات مفزعة قبلا أما الآن فسأعيش واقعا مرا مقيدا بماض أليم يذكرني به كل قط بعينين خضراوين دائريتين لامعتين. إنه فعلا رهاب القطط!

لأنني مختلفة

كانت ليلة قمرية صافية تلك التي رحت أناجي السماء فيها وأسر النجوم أفكاري. انتصفت الليلة ولم تهدأ عيناي للنوم بعد، بدا فراشي مملا وقد تقلبت عليه مرارا باحثة عن الراحة بعيدا عن الهواجس التي فتكت بجسدي وأرهقته بعدما عانى الأرق. كانت تلك الليلة تسبق يوم تخرجي من الجامعة، ذلك اليوم الذي طالما حلمت بأدق تفاصيله وأنا أرتدي الجلباب الأسود المزوق باللون البنفسجي عند حاشيته بينما أعتمر القبعة المربعة السوداء وأنا أحمل شهادة تخرجي بكف وألوح لعائلتي بالكف الأخرى والابتسامة تعلو ثغري.

بدت تلك الصورة مختلفة الآن، فهناك مشهد جديد لم أتصوره مسبقا طرأ عليها؛ تلك الخطبة التي أوكل عميد الكلية إليّ أمر إلقائها على مسامع الجمهور قاطبة من الأساتذة والأهالي والطلاب!

طلبني العميد بمكتبه قبل يومين وقال وهو يرسم ابتسامة على وجهه الحازم:

مبارك يا أمل، لقد كان ترتيبك الأول على دفعتك، معدلاتك مشرفة للغاية. في هذه الحالة سيتوجب عليك إلقاء خطبة في حفل التخرج بعد يومين.

خطبة في حفل التخرج!

أجل يا أمل، فبروتوكول الجامعة يقضي بأن يتكلم الطالب الأول في كل كلية بخطبة ينوب بها عن زملائه.

يبدو الأمر مربكا يا سيدي، لم يسبق لي أن قمت بأمر كهذا من قبل.

تدربي على الأمر من الآن وأنا واثق من أنك ستبلين حسنا يا أمل.

كنت طالبة منعزلة أحطت نفسي بجدار يفصلني عن زملائي، لم أكن أحب الوحدة فعلا لكنني وجدت في العزلة السلام. بالكاد كان الآخرون يرونني أجلس وحيدة هادئة في الصف الخلفي من قاعة المحاضرة، أقبع بسكون أدون ملاحظاتي وأنصرف على عجل ما أن يعلن الأستاذ انتهاءه. تلقيت نظرات الاستفهام من زملائي الذين نجحت بجدارة في لفت انتباههم لتلك الفتاة المنطوية التي بدت تعاني من كآبة مزمنة نفرت الآخرين منها.

كنت أحرز تقدما في تحصيلي الدراسي لكن أحدا لم يكن يدرك ذلك، فعلى العكس من أولئك الذين يتفننون في بث آخر أخبار إنجازاتهم العلمية في مختلف المواد وعلى اختلاف المراحل، كنت أحتفظ بإنجازاتي لنفسي وكأنها سر أخفيه عن عيون الآخرين! لطالما اعتقدت أنني مختلفة عنهم.

لم أكن مكتئبة ولم أكن أعاني من اضطرابات في هرموناتي تجعلني شاذة التصرف، إنما هو ذلك الشعور الذي طالما انتابني بأنني مختلفة عمن حولي. ترعرعت في بلاد المهجر منذ نعومة أظافري، تلون لساني بلغتهم، لونت شعري فغطيت ذلك السواد الفاحم بألوان سرعان ما تغسلها الأيام لأعاود الكرة بطلائه بلون جديد، لكن بشرتي أبت أن تتلون! تلك البشرة الحنطية التي اصطبغت بلون تربة شربت من مياه دجلة وتغذت من شمس الشرق الحارقة.

كرهت ذلك الاختلاف، كنت أقرأ خوف الناس في أعينهم، شعرت إنني أمثل ما يسمى بالاسلامفوبيا من خلال نظراتهم التي تستنكر عليّ محاولات اندماجي في مجتمعهم. فضلت الانسحاب فكورت نفسي وبنيت جداري وغدوت وحيدة منعزلة.

نهضت من سريري، أخرجت المقال الذي كنت قد كتبته وتدربت على إلقائه مرارا وتكرارا حتى حفظته عن ظهر قلب. كان مقالا مملا لا يمت لأحاسيسي بصلة، إنما بضع كلمات روتينية ألقيها على مسامع الحضور والسلام. طمأنت نفسي وحدثتها ببساطة الموضوع علّها تهدأ، عدت إلى فراشي وأغمضت عيني عنوة وأنا أنتظر الكرى شوقا ورجاء.

وقفت على المنصة وقد امتلأت الساحة بالحضور الذي التزم الصمت وهو يترقب تلك الفتاة الواقفة أمامهم لتدلي دلوها. قلبت

نظري بينهم، بحثت عن والديّ، لمحت أكفا من بعيد تحيني، مدني ذلك ببعض الشجاعة. جلت بنظري في ورقتي الموضوعة أمامي:

رئيس الجامعة الموقر

عميد الكلية والأساتذة المحترمون

الحضور الكرام

تحية طيبة وبعد،

انعقد لساني لحظتها وتجمدت شفتاي بينما تصببت عرقا وشعرت بشلل أصاب عيني فلم أعد قادرة على تحريك جفنيّ، شعرت بقلبي ينبض بقوة حتى كاد يتفجر، بدا غاضبا ساخطا محتجا على تلك الكلمات الزائفة. كان لسخطه أثر كبير على عقلي الذي بدا محتجا أيضا؛ فكيف للإنسان أن يسعد بتلفظ ما لا يؤمن به. شعرت بورطة كبيرة وأنا في ذلك الموقف، كان لا بد لي من هدنة مع ذلك السخط الذي أصابني. وجدت لساني يتحرك أخيرا ليلفظ كلمات غير تلك المكتوبة على الورقة:

اسمي أمل مصطفى العطار، أمل في اللغة العربية تعني الرجاء واسم والدي مصطفى ويعني المختار أما العطار فهو امتهان العطارة والتي كانت مهنة أجدادي. ولدت في بغداد من أصول عراقية بحتة. قدمت إلى بلاد المهجر وأنا في الثالثة من العمر، لا أذكر شيئا عن

العراق، فقد نشأت وترعرعت هنا، لكنني لم أستطع أن اندمج فعلا، كم كرهت اسمي لأنه عربي، وكرهت لون بشرتي الذي يفتضح أصولي، كرهت تلك التقاطيع في وجهي التي تذكرني باختلافي عن الآخرين وكم كرهت نفسي لأنني أفكر بهذه الطريقة!

تؤلمني نظرات الناس التي يملأها الرعب من شيء اسمه الإسلام، حتى إنهم استحدثوا مصطلح الإسلامفوبيا الذي أضاف إلى معاناتي الكثير، فأنا متهمة بتهمة الهوية! ويل لأولئك الذين يشوهون الدين باسم الدين، المسلمون براء منهم. نحن أناس عاديون لنا أحزاننا وأفراحنا، لا نحب القتل وسفك الدماء، نكره الإرهاب ونمقته.

كنت جبانة عندما عزلت نفسي عن زملائي بجدار سخيف، لا سيما وأنا أرى اندماجهم فيما بينهم على اختلاف طوائفهم وألوانهم ومعتقداتهم. سمحت لسنوات الدراسة بالانقضاء وأنا أصاحب الوحدة لا شيء آخر، لم أجرؤ لأحاول إثبات وجودي. لكنني اليوم أقف أمامكم بكل فخر وأعلنها للملأ:

أنا أمل مصطفى العطار، عربية أفتخر بأصولي وبعائلتي وبهيأتي، أفخر بموروثاتي التي ورثتها عن عائلتي والتي لا شك أن لها الفضل بطريقة أو أخرى بتقدمي العلمي الذي جعلني اليوم أقف بين أيديكم، وأفتخر بهذه الكلية التي إليها أنتمي وإلى هذه الأرض التي احتضنتني طفلة واعتنت بي حتى صرت إلى ما أنا عليه الآن، هذه الأرض التي

شاءت الأقدار أن تنبت جذوري فيها لأصبح جزءا من هذا المجتمع المتنوع. وقد عزمت منذ لحظتي على رفع الراية ضد الإرهاب وكل ما يسئ إلى مجتمعنا وما يشوه هويتي. أنا مختلفة، نعم أنا كذلك لأنني أنتمي لبلدين جميلين لا أملك إلا الوقوف إجلالا لهما.

سكنت بينما كانت دقات قلبي مرتاحة مطمئنة، قلبت نظري بين الحاضرين الذين أعقبوا دهشتهم بتصفيق حار وتصفير بينما قذف الطلاب قبعاتهم إلى الهواء وهم يرددون اسمي وشعارات تنبذ الارهاب.

ضحايا الاستعباد

كانت ضعيفة البنية تهزها الرياح وتثقلها الثلوج، لم تعرف من قسوة الطبيعة ملاذا غير الطبيعة لتختبئ تحت شجرة أو حتى شجيرة، وقد قلت الأشجار بعد أن امتدت يد الإنسان حاملة شعار التوسع والدمار.

مشت وسط مدينة اكتظت بأناس ابتهجوا بحلول العيد وقد تجمعوا حول مركز المدينة حيث وقف العمدة خاطبا فيهم:

يا أبناء مدينتي الكرام، نحتفل اليوم بحلول العيد، عسى أن يكون هذا العام عام سعادة ومساواة وتحقيق الآمال للجميع كما هو دوما في مدينتا الجميلة.

أخذ الرجل يتكلم والناس في سعادة مزيفة، فهم على يقين إن المساواة لم تجد لها سبيلا ولن تجد في ظل بلد أرستقراطي. كانوا على علم أن آمالهم وسعادتهم لن تتحقق إن لم تنتشر المساواة بينهم! لكنهم يصغون ويصغون، فهم شعب يصغي ليعيش ويعيش ليأكل. هكذا حالهم مقتنعين ببهرجة العيد وبهجته.

وقفت الفتاة المسكينة بين الحشود وهي تستمع لأقوال العمدة بأذنيها بينما كان صدى آمال الناس يتردد في قلبها. حدثت نفسها سرا:

ما عرفت السعادة ولا عرفتني يوما، لطالما أصغيت وأصغيت ولكني لم أجد لقمة تطفئ أنين معدتي الخاوية، فهل أصغي ثم أقتنع ببهرجة العيد؟

أنا لا أملك مأوى ألجأ إليه غير شوارع المدينة المتعفنة، أنا في عالم تحيط بي الوحوش من كل حيث وأين، ثوبي مرقع قد مزقته قسوة الطبيعة.

انتفضت من مكانها بعدما استعر الغضب في داخلها فلم تعد قادرة على الكتمان عندها هتفت مرددة:
لا وألف لا!

التفتت الحشود إليها مستغربة باحثة عن صاحبة ذلك الصوت المتمرد الذي خرج على حين غفلة، لكنها لم تأبه لهم وتابعت قائلة:

إلى متى أيها المزيفون؟ إلى متى تقنعون أنفسكم بماض مخز وحاضر يجلب العار ومستقبل يتوعد بالجحيم؟ أنتم تكتفون بلقمة ترمى إليكم مقابل سكوتكم عن حقوقكم ككلاب سلبت نباحها!

أنا منكم وإليكم! ثم نظرت إلى مجموعة رجال ونساء وقالت:

أنت أبي، وأنت أمي، هذا أخي، وهذه أختي فلم السكوت على ظلم رذيل؟

ثم وجهت كلامها للعمدة عندما أشارت إليه بإصبعها المرتعش مهددة وعيناها قد استشاطتا ضغنا:

أنتم استعبدتمونا وقد ولدنا أحرارا! أنتم سبب تشردي، أنتم سبب موت أطفالنا، أنتم سبب اندثار حضارتنا، أنتم سبب في هلاك عالمنا.

حينها رفعت يديها إلى السماء وقالت بصوت مرتعش منهك: اللهم ارفق بعبيدك البؤساء!

برقت السماء لحظتها ورعدت وصرصرت الرياح بقوة فسقطت الفتاة بين الحشود وقد ازرق وجهها وتجمدت شفتاها وانطفأ بريق عينيها.

أما العمدة فقد اعتلى المنبر ثانية وقال بعين حازمة تثير الرعب في النفوس:

لابد إن هذه المسكينة قد تأثرت بفرحة العيد وبهجته فجن جنونها ولم تدرك ما تقول!

لم يقو الناس على شيء غير التصفيق للعمدة بحرارة يعلمون زيفها وهم يهتفون: عيد سعيد يا سيدي!

قال العمدة لحاشيته سرا: أرأيتم! هم فعلا كلاب بلا نباح!

تفرق الناس بعدها وظلت جثتها منسية على الشارع المتجمد بينما دوت كلماتها في الفضاء وصعدت روحها إلى السماء لتنضم إلى قافلة كبيرة وجدت منذ الأزل من ضحايا الاستعباد.

سحور بالانتظار

اهداء إلى شهداء الكرادة/ بغداد
الذين قضوا في ٢٨ رمضان ٢٠١٦

كنت أتنقل برشاقة في مطبخي المزدحم بين القدور المصطفة التي احتلت وجه الموقد المشتعل والطاولة الدائرية التي تربعت قلب الفسحة الصغيرة وسط المطبخ. كانت أصوات تقطيع الطعام بذلك السكين الكبير أشبه بمقطوعات موسيقية اتخذت نسقا منتظما أضفت إلى عملي نوعا من المتعة فلا يجد الملل إلى قلبي سبيلا.

كانت رائحة الطعام زكية تختلط بأنفاسي التي أتعبها صوم يوم طويل وقد أشرف موعد الإفطار أن يدق نواقيسه المحببة ليعلن انقضاء يوم آخر من أيام الخير والبركة. كنت أراقب القدر الذي امتلأ بحساء العدس الأصفر الذي لا يمكن أن تخلو المائدة منه أبدا، رحت أحرك تلك الفقاعات المتراقصة فوق سطحه، دفعتني تلك الرائحة للغوص بعيدا في أعماق ذكرياتي عندما كنت طفلة صغيرة حيث أول عهدي بالصيام، اعتادت أسرتي أن تجتمع في بيت جدي المملوء دفئا، كانت سفرة كبيرة تلك التي تفترش الأرض طولا لكثرة عدد جالسيها الذي ربما كان قد يتجاوز التسعة عشر صائما من الأقرباء والأنساب. لطالما احتل حساء العدس الصدارة في تلك المائدة،

كم أعجبني التفنن في تزيين تلك الأطعمة المتنوعة. لم أكن لأنسى تلك الوجوه الخاشعة وهي تستشعر لذة الصيام في آخر لحظاته قبل الإفطار، حيث الأكف مرفوعة للسماء بالدعاء والألسن لهجة بالذكر والآذان مصغية مترقبة لسماع صوت إطلاق المدفع الذي يلحقه مباشرة صوت الأذان الساحر الذي يعلن حلول عيد الصائم بإفطاره، فتتناوش الأيدي حبات التمر الشهية وكؤوس الماء البارد الذي سرعان ما يطفئ عطش كل ريق.

انتبهت من بحر ذكرياتي على صوت الأذان الخاشع الذي تسرب عبر النافذة في الصالة، بدت المائدة معدة بشكل جيد حيث رتبت أطباق الطعام ليحتل كل منها موضعه بينما لمعت الصحون البيضاء بانتظار الصائمين ليشرعوا بفطورهم. ناوشت زوجي حبة تمر قائلة:

إفطار هنئ يا عزيزي.

سلمت الأنامل يا عزيزتي، ولا أشهى ولا ألذ من طعامك.

كان ذلك اليوم مميزا حيث وجب علينا الانتهاء من الفطور بسرعة؛ كنا على موعد للخروج إلى إحدى المراكز التجارية الكبيرة في قلب المدينة، كان التبضع لمستلزمات العيد أمرا محببا إلى قلبي ولربما إلى قلوب النساء قاطبة لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لزوجي الذي لم يكن يشتكي أبدا لكن ملامح وجهه تؤكد نظريتي بامتياز!

أسرعت بترتيب مطبخي بينما وضعت طبقا على الطاولة ليكون بانتظارنا حال عودتنا من أجل السحور، ألقيت نظرة أخيرة على المكان الذي فاحت منه رائحة البخور، كنت أحرص على أن تطغى على روائح الطبخ العالقة بين جزيئات الهواء.

كانت الشوارع مزدحمة وقد راجت بحركة روادها الذين تنافسوا مع السيارات فلم يبقوا لها مجالا للحركة مما اضطرنا للترجل والسير مسافة حتى وصلنا إلى حيث نريد. كان المجمع لا يقل زحمة عن الشارع، وكأن الناس يهربون من ضيق الحصار الذي فرض على مدينتهم التي لم تعرف السلام منذ سنوات طويلة فانطلقوا بين شوارعها وأسواقها يريدون الهروب من واقع أليم للعيش في آخر يرسمون فيه الفرحة على تلك الوجوه التي تنتظر العيد بعد أيام قليلة.

سيكون عيدا جميلا يا عزيزتي، سنبحر فيه بعيدا فنكتشف مدنا جميلة.

سيكون جميلا ما دمت إلى جانبي يا حبيبي.

بدا الجو خانقا وقد تعذرت الحركة بين أروقة المجمع ومحاله، أحسست بضيق في صدري أصابني الدوار، لاسيما مع ذلك البطن المكور الذي بدا كبيرا حتى صعب حمله مع تلك الركلات الرقيقة التي لا يمكن لأحد غيري أن يشعر بها. شعرت بشيء من التحسن بعد كأس عصير البرتقال الطازج.

كنا قد هممنا بالمغادرة عندما اهتزت جدران المجمع وأرضيته وكأن زلزالا قويا أصابها، اخترق صفير جرس الحريق آذاننا، كان صوتا مدويا عقبه انقطاع النور، بدا المكان دامسا بينما تعالت أصوات الصراخ الممزوجة ببكاء الأطفال الذين أصابهم الهلع، لجأ الناس إلى جوالاتهم محاولين تحسس طريقهم للخارج. كنا في الطابق الثالث للمجمع، كان علينا هبوط سلالمه الطويلة بعدما تعطلت المصاعد الكهربائية، تدافع الناس على تلك الدرجات كل يريد الإسراع بالهروب من تلك السحب الدخانية التي أخذت تعلو رؤوسنا، تصاعدت أصوات السعال الممزوجة بالصراخ المتقطع، أضاءت ألسنة النيران المشتعلة المكان، تراءى لي الجحيم بعينه، مئات محشورون في أروقة ضاقت بهم والنيران تقترب منهم وقد اتسع فوها تريد التهام تلك الأجساد. لم يرق قلبها لمنظر تلك الأم التي ارتمت بجسدها فوق أطفالها تريد درء الحريق عنهم، ولا منظر ذلك العجوز الذي سرعان ما استسلمت قدماه بعدما عجزت عن الحراك مسافة أبعد. لم ترحم النيران ذلك الأب الذي حال عمود خشبي مشتعل بينه وبين زوجته وأطفاله الذين اشتعلوا أمام عينيه وهو عاجز عن إنقاذهم فسقط مغشيا عليه.

أمسكت يد زوجي وأنا أتصبب عرقا بينما كانت أوصالي ترتعش خوفا، وضعت يدي الأخرى على بطني أريد تهدئة جنيني الذي راح يركل

بشدة. بدا السلم المزدحم بعيدا، شاهدت رجالا يقفزون من الطابق العلوي لتتلقفهم النيران في الأسفل.

لن يجدي نزولنا إلى الأسفل شيئا، دعينا نجرب الوصول إلى السطح.

هرعنا مع آخرين نريد الهروب إلى السماء، كان بابا حديديا محكم الاغلاق، حاول الرجال كسر ذلك القفل الكبير الملتف بسلاسل معدنية عملاقة، باءت محاولاتهم بالفشل بينما تسللت سحب الدخان إلينا، جلست أرضا بعدما خارقت قدماي وقد شعرت بمياه تتدفق بين فخذي، أشتد ألمي، كان صراخي متقطعا، أراد جنيني الخروج إلى عالمنا ظنا منه إنه أفضل من عالمه. لا تفعل يا حبيبي، ابق هناك حيث الدفء والأمان، جلس زوجي إلى جانبي وقد أمسك يدي وقبلها وهو يمسح جبيني بيديه المبتلتين بينما كان جبينه يقطر عرقا، تخافتت الأصوات بعدما خنقت، استسلمت تلك الأجساد النائمة نوما أبديا للنيران الجائعة التي سرعان ما حولت المجمع بمن فيه إلى حطام أسود قبل أن يتمكن رجال الإطفاء من الوصول إليه.

تناقلت الأخبار الحدث المهول، عمل إرهابي! ثلاثمئة شهيد أو يزيدون، مئات من الجرحى والمصابين! تناثرت دموع الناس على أمواتهم، ضحايا كثر كان جرمهم الوحيد حب العيد وحب الحياة... لم نرجع إلى بيتنا بينما بقيت مائدة السحور بانتظارنا، هناك في مطبخي!

همسات بين الأنقاض

في مدينة بعيدة دكت أسوارها واستبيحت أرضها حتى غدت نازفة وقد ضاقت بجثث أتى الموت على معالمها. لم تعد تلك الأرض قادرة على الصمود وهي تحمل هياكل لما كان في يوم من الأيام بنايات عالية وصروح شامخة تعانق الغيوم. لم يعد لحقول القمح وجود بينما بدت أشجار الزيزفون عارية جرداء تنازلت عن ردائها حدادا على أشجار النخيل وكروم العنب. أدركت تلك المدينة أن الشيخوخة قد استفحلت في أوصالها المرهقة، أرادت الاستسلام لقدرها الحزين وهي تعيش الموت كل يوم في آهات أبنائها الذين فتكت الحرب بأشلائهم وشتتهم هنا وهناك.

من بين الأنقاض البالية، عبقت همسات حانية بدت كتغاريد عصفور تخلف عن سربه الذي هاجر دونما عودة. أو كوردة أرادت المجازفة بالوقوف صامدة في وجه الشتاء.

قال لها: أعشقك.

أجابته: أحبك.

همس في أذنيها: لن يصبر قلبي بعد الآن. لقد أرهقته طعنات بعدك يا حبيبتي.

احمر وجهها وقد هزت كتفيها أن ما باليد حيلة!

اندفع قائلا: نتزوج، سيبارك أهلونا هذا الزواج الذي انتظره الجميع.

تنهدت حسرات: زواج محفوف بالأموات!

بل زواج يتحدى الموت والرماد!

انطلقت زغاريد مخنوقة من حناجر أرهقها البكاء على الأحباء، لم تشهد المدينة زواجا لأكثر من عامين مضيا، كان الناس قد انشغلوا فيهما بتضميد جراحات أحزان لا تنكفئ تتفتق يوما بعد آخر بمصائب متتالية وكأن السواد كتب على تلك المدينة التي لم يعرف أهلها سكونا في ليل أو نهار حيث حلت الطائرات والصواريخ مكان الطيور والنجوم!

كان الاستعداد لحفل الزواج قد شغل الكثيرين من أهل المدينة المتهالكة، كان حدثا مهما أرادوا منه فسحة لبعض الأحلام الجميلة التي طالما افتقدوها، نصبوا خيمة كبيرة في ساحة المدينة التي كانت في زمن من الأزمان لا تهدأ من الاحتفالات والمهرجانات حتى أطلق عليها اسم "ساحة الاحتفالات". حرصوا على تزيينها بأبهج الألوان، تجنبوا اللون الأحمر، ذلك اللون الذي تضرجت به أجساد الراحلين بلا وداع. رصت الشموع على جانبي الطريق حتى بدا الليل متلألأ بنجوم أرضية لا سماوية.

اجتمعت نساء المدينة في غرفة العروس، هذه تضع مساحيق التجميل وتلك تضفي لمسات أخيرة على ذلك الثوب الأبيض وتلك لا تبخل بإطلاق الزغاريد بينما تضع صديقات العروس الحنة في يديها بمهارة فائقة لتشكل نقشا جميلا.

تقدم العروسان ليجلسا في قلب الخيمة وقد أحاطت بهم الأهازيج والزغاريد، استطاعت الابتسامة أن تجد طريقها في وجوه فارقت الابتسام لوقت طويل، بدا كل من في الحفل سعيدا بعدما عقد على قلبه عهدا بنسيان الألم ولو لساعات معدودات. كم بدا جميلا أن يتوقف الزمن بعض الوقت، أن يتجمد الحاضر قليلا فلا يسير عجلا نحو المستقبل المخيف، كان يكفي أولئك المتعبين من ويلات الحروب بضع ساعات معدودات من السكينة ليشحذوا بها الهمم قبل أن تعصف بهم الحياة من جديد.

اهتزت الأرض فرحا بوقع ضربات الراقصين، امتزجت دموع الحاضرين بضحكاتهم، وكأن مدينتهم قد استيقظت من سبات الحرب اللعين لتعلن عودتها إلى الحياة بعد طول غياب.

أدركت تلك الأرض أن ما شربته من دماء لا بد أن يورق أشجارا تثمر الخلود، لا بد للتاريخ أن يحكي قصة أسوار دكتها الصواريخ وأرواح غيبتها الأنقاض لكنها أرواح حية متجددة في أولئك الذين يرفضون الموت وهم أحياء. أنعش أنفاس المدينة مشهد أبنائها تحت

خيمة واحدة، تعددت أجناسهم وألوانهم وأديانهم لكنهم توحدوا بانتمائهم لتلك الأرض التي أتعبها تشتتهم وآلمها تفرقهم.

نظر إلى عروسته التي تألقت جمالا: أحبك.

بادلته نظرات الحب والخجل: أحبك.

أمسك يديها بحنان: أنظري إليهم، إنهم فرحون لفرحنا، إنهم يستلهمون الأمل من هذه الخيمة يا حبيبتي.

شدت على يديه وهي تقول: أتمنى ألا ينتهي هذا العرس أبدا يا حبيبي، أخشى أن نستيقظ منه على ما كان بالأمس القريب.

لا تخشي شيئا يا حبيبتي، سيبقى العرس حيا في قلوب الجميع، فهو بذرة الأمل التي غرست في القلوب.

لم يمض وقت طويل قبل أن يتنبه القدر إلى السعادة التي حلت بأولئك الأشقياء، فرح وسرور في أرض كتب عليها الموت والشقاء، كان لا بد للحفل أن ينتهي وأن تدفن بذرة الأمل في صحراء بعيدا عن الماء، لم تَجُد السماء إلا بزخات من القنابل أفرغتها إحدى الطائرات التي حامت فوق الخيمة، سرعان ما تصاعدت سحابة دخان فوق الخيمة المشتعلة التي لم تستطع مقاومة شراهة النيران الجائعة حيث راحت تلتهم كل ما تطوله أياديها. تراكض الحاضرون يريدون الخلاص، لم تمهلهم زخات الرصاص التي لاحقت من استطاع خداع النيران إلى خارج الخيمة فأردته قتيلا.

من بين الصرخات والنحيب، انطلقت همسات من تحت عمود الخيمة المشتعل الذي هوى أرضا ليستقر فوق جسد العروسين.

قال بصوت أتعبه نداء الموت: أحبك.

أجابته والنيران تأكل جسدها: أحبك.

ترقرقت عيناه دموعا امتزجت بالدماء: أنت زوجتي، سنحيا معا في السماء.

فاضت روحهما مع قافلة الأرواح التي غادرت المدينة الحزينة التي لا زالت تحكي قصص أبنائها المحلقين بعيدا عنها إلى السماء.

حديث سيدة عجوز

كنت أحث خطواتي في شوارع المدينة القديمة وقد ضعت كتابي فوق رأسي محتمية به من زخات المطر التي لم أتوقع هطولها. لم يكن أمرا غريبا في تلك المدينة أن تتخلى السماء فيها فجأة عن أشعة الشمس لتحل مكانها الغيوم التي لا تبخل بإرسال هداياها. كنت قد اعتدت العيش في هذه المدينة بعيدا عن الديار حيث ارتدت إحدى جامعاتها المرموقة، مرت السنوات الأربعة سريعا امتزجت فيها أيامي بين شوق وحنين للأهل والأصحاب وتحد لإثبات الذات وتصميم على النجاح. لم يتبق على تخرجي إلا الأمر اليسير، كنت قد أنهيت جميع متطلبات التخرج الأكاديمية، توجب عليّ بعدها إتمام عمل تطوعي أخدم فيه المجتمع. أحببت الفكرة على الرغم من عدم خوضي لمثل تلك التجارب من قبل. بدا أمرا رائعا أن يندمج الفرد في المجتمع فيصبح معطاء بلا مقابل يقدم خدمة ليثبت فيها إن لوجوده أهمية في هذا المجتمع.

كان عليّ تحديد الخدمة التي سأقدمها، وجب إتمام ما يقارب الثمانية عشر ساعة من الخدمة، بدا دار العجزة الذي يقع في نهاية الشارع الذي أقطن فيه مناسبا للغاية، ست ساعات في اليوم لمدة ثلاثة أيام ستكون كفيلة لنيل شهادة التخرج.

انطلقت مسرعة نحو الدار، كانت السماء حينها قد كفكفت دموعها واسترجعت الشمس مكانتها بين الغيوم، دخلت الدار وقدمت أوراقي لموظفة الاستقبال، ابتسمت وأشارت إلى سيدة تجلس قبالة النافذة المطلة على الحديقة الخلفية للدار. قبل أن أدير ظهري باتجاه السيدة همست الموظفة قائلة: إن جميع المسنين في هذا الدار يعانون من مرض الخرف، فالدار لا يستقبل إلا مثل تلك الحالات!

وأين يذهب المسنون الذين لا يعانون من خرف يا سيدتي ويحتاجون إلى رعاية؟

لست من وضع ذلك القانون، لا تصوبي نظرات الاستنكار هذه نحوي.

ابتعدت عنها وقد أفزعني حديثها، أي عذر التمست تبرئ فيه ضميرها النائم. لم تكن المسافة التي تفصلني عن السيدة العجوز طويلة إلا أن صور عشرات وعشرات من المسنين المقعدين الذين هم بأمس الحاجة للرعاية طافت في مخيلتي، خيم الحزن على وجهي، كان لا بد من استبداله ببعض الابتسام. اقتربت من السيدة، عجوز تجاوزت عقدها الثامن، تجلس متأنقة وقد ارتدت ثوبا أحمر واعتمرت قبعة حمراء كبيرة غطت جزءا من حاجبيها، كان وجهها حالما بينما كانت تراقب الطبيعة من بعيد، ازدحمت التجاعيد في ذلك الوجه الذي حرصت على إظهاره بأكمل صورة، أدهشني أحمر الشفاه

الذي تضعه تلك السيدة، لم أكن أملك لونا جريئا مثله، استسخفت أفكاري وأنا ألقي التحية عليها:

صباح الخير سيدتي، أنا سارة. جئت أمضي بعض الوقت معك أستمع إلى أحاديثك وقصصك إن كنت لا تمانعين.

صباح الخير يا سارة، اجلسي يا عزيزتي. جميل لون الحذاء الذي ترتدين، أحب اللون الأحمر كثيرا، إنه يلائم معطفك الرمادي هذا.

شكرا لك يا سيدتي، أحب اللون الأحمر أيضا.

هل أخبرك سرا يا سارة، على أن تحافظي عليه؟

طبعا يا سيدتي!

سأهرب اليوم من هنا!

ماذا؟

سيأتي حبيبي على جواده ويصحبني بعيدا عن هنا، سنجول الحقول والسهول، نشرب الحب كؤوسا، نفترش الأرض بساطا ونلتحف النجوم، سنعزف أجمل الألحان وننافس الطيور المغردة، سنحفر اسمينا على الأشجار ونتسابق على رمال الشاطئ الباردة فتدغدغ المياه أقدامنا الحافية، وتملأ ضحكاتنا الفضاء. سنلقي بأعباء الزمان بعيدا عن كاهلينا ونبتسم للحياة فنرشف منها رشفة الخلود. لن يصيبنا بعدها برد أو حر، جوع أو مرض، لن يعرف قلبانا غير لحن الحب عنوانا للحياة!

سيدتي، هل أنت على ما يرام، هل يجدر بي مناداة الممرضة أم ماذا؟

ماذا؟ من أنت؟ لماذا تجلسين معي وتتجسسين على أحاديثي؟ أي جرأة هذه؟ أيتها الممرضة؟

انتفضت من مكاني فزعة، لم يكن قد سبق لي الجلوس مع أناس يعانون من داء الخرف، ملأتني الدهشة وأنا أشاهد تلك السيدة تتقلب أحوالها من حال لآخر، أي حلم جميل استيقظت منه تلك المسكينة، ربما لم يكن حلما، ربما كان ما وصفته قد حدث معها حقيقة أيام صباها! اعتصرت الشفقة قلبي وأنا أغادر الدار بعد أن وقعت على ورقة مغادرتي التي تشهد بخدمتي فيها.

أخذت الحيرة مني مأخذا عجيبا، رحت اتخبط في الطرقات لا أرى أمامي إلا وجه تلك العجوز التي لا تميز حلمها من واقعها، لم انتبه لتعرجات الطريق الزلقة، تعثرت والتوت قدمي، سقطت أرضا، كسر كعب حذائي الأحمر، كان عليّ إكمال طريقي بفردة حذاء واحدة.

استغرقت تلك الليلة أبحث في الكتب عن مرض الخرف، أعراضه، علاجه إن وجد، كيفية التعامل مع المصابين به، غذاؤهم، وكل ما له علاقة بالمرض.

استيقظت باكرا في صباح اليوم الثاني، كان الأمل يلفني بينما رحت أتراقص إلى الدار، اعتقدت أن ما بجعبتي من معلومات عن داء الخرف سيمكنني من التعامل مع تلك السيدة بشكل أفضل.

اقتربت منها، بدت صورتها مختلفة تماما عن البارحة، كانت تجلس هادئة محلقة في الفراغ، ارتدت فستانا فضفاضا أشبه بلباس الحوامل، أسدلت شعرها الأشيب على كتفيها، كانت يداها منشغلتين بالحياكة، بادرت قائلة:

صباح الخير سيدتي، كيف حالك اليوم؟

من أنت؟

لم استغرب سؤالها، فمن يعاني مثلها من ذات المرض لا يتمكن من بناء ذاكرة طويلة الأمد، سرعان ما يمحو عقلها كل ما يحدث معها من أحداث بينما يبقي شريط ذكرياتها سليما معافى يسهل استدعاؤه كلما طرأت الحاجة.

أنا سارة يا سيدتي، أود مشاركتك الجلوس وتبادل الأحاديث.

أهلا بك يا سارة، ترتدين حذاء أصفر جميل، إنه يتماشى مع معطفك الرمادي، أحب اللون الأصفر كثيرا.

أحب اللون الأصفر كذلك.

هل أخبرك سرا يا سارة، على أن تحافظي عليه؟

طبعا يا سيدتي!

أنا انتظر طفلا جميلا يا عزيزتي! هناك طفل ينمو في أحشائي. سيخرج ويرى النور يوما ما ليكتحل ناظري برؤية وجهه الملائكي الجميل، آه كم أتوق لتقبيل أصابعه الصغيرة ومداعبة وجنتيه الناعمتين. سأضمه بين ذراعي لأتزود منه حلاوة الأمومة. أنظري إلى

هذه القبعة الجميلة التي أحيك، ستبدو رائعة وهي تعلو رأسه الصغير.

سكنت قليلا ثم ما لبثت أن وضعت يديها خلف ظهرها وهي تقول: أنقذوني، إنه ألم المخاض، راحت تتلوى وتشد ثوبها بأسنانها حتى كادت تمزقه وقد تسارع نفسها.

أصابني الارتباك مجددا، أهي بخير أم أن مكروها أصابها فعلا، بحثت بنظراتي عن الممرضة، أومأت إليّ أن لا خطر عليها، يبدو إنهم شهدوا هذه المسرحية من قبل!

قررت تطبيق ما تعلمته في الكتب، كان عليّ مجاراتها، جثوت عند ركبتيها، أمسكت بيديها، قلت لها: تشجعي يا سيدتي، سيزول عنك الألم وتحظين بطفلك الرائع.

نظرت في عينيّ نظرة عميقة، شعرت بالخوف عندما سكن أنينها واستبدلته بعبوس لحقه بكاء حار تتابعت فيه الزفرات. قالت بصوت حزين متقطع:

صغيري، أين صغيري، لا تدفنوه رضيعا، أنظروا كم هو جميل، لماذا رحلت عني يا حبيبي قبل أن أشمك وأضمك إلى صدري، ماذا سأقول لألعابك المرتبة بعناية على الرف في غرفتك الزرقاء؟ من سينام في سريرك المزين بالألوان. كيف لقبك الصغير أن يقسو على أمه فلا يسعفها بنظرة قبل الرحيل؟

لم أتمكن من كبت دمعتي في عيني، وضعت يدي على كتفها، حاولت تهدئتها: ارحمي نفسك يا سيدتي، كفاك بكاء.

رفعت رأسها نحوي وكأنها انتبهت توا لوجودي، قالت فزعة وقد تراجعت بعيدا عني: من أنت؟ منذ متى وأنت هنا؟ من سمح لك بالجلوس إلى جانبي؟ أيتها الممرضة، أين أنت؟

تراجعت مبتعدة عنها، لم تكن دهشتي أقل من البارحة، أي ألم شهدته تلك السيدة في حياتها؟ بدت حبيسة ذكرياتها، كم سيكون مفيدا لو تمكن الانسان من اختيار ما يحتفظ به من أحداث وما يلقي به في تابوت النسيان الأبدي، لن يعكر حينها الماضي أيامنا، ربما الأمر ليس بهذه البساطة، فالعديد من الذكريات الجميلة لا تبنى إلا على أكتاف أحداث مريرة نجبر على خوضها.

شعرت بالدوار وأنا أسير عائدة إلى بيتي، حرصت هذه المرة ألا أتعثر في الطرقات، وصلت بسلام إلى حيث شقتي، تدثرت في سريري متشبثة بغطائي، أرسلت بناظري عبر النافذة إلى النجوم البعيدة، بدأت بعدها، غفوت قبل أن أصل إلى الرقم أربعة!

كان شعوري غريبا ممزوجا بين الفرح والحزن وأنا أتوجه إلى الدار، كنت سعيدة لأن انتهائي من هذه الزيارات يعني تخرجي وحصولي على الشهادة الجامعية التي اجتهدت في طلبها سنوات طوال ويعني عودتي إلى الديار البعيدة التي فتك شوقها قلبي. تسلل الحزن إلى قلبي لأنني شعرت ببعض المسؤولية تجاه تلك السيدة التي تقبع

وحيدة في تلك الدار تعيش ذكرياتها حلوها ومرها لحظة بلحظة، تنتظر قدرها الذي أبطأ عنها.

تقدمت نحوها وابتسامة حانية تعلو وجهي: صباح الخير سيدتي، أنا سارة وقد جئت أقضي اليوم معك إن أذنت لي بذلك.

كانت هادئة تنظر كعادتها إلى الحديقة بينما أمسكت بيديها كتابا وكأنها انتهت من قراءته توا.

أهلا يا عزيزتي، تفضلي بالجلوس، سيسعدني حضورك. آه، يا له من حذاء أخضر جميل، إنه يتناسب تماما مع معطفك الرمادي هذا، أحب اللون الأخضر كثيرا!

أحبه أيضا يا سيدتي.

كنت قد تعمدت ارتداء حذاء بلون جديد، دفعني فضولي لاكتشاف ردة فعلها، أدركت أنها تحب الألوان كلها! كنت أنتظر سرها كما كانت تفعل سابقا بفارغ الصبر، لكنها اليوم بدأت حديثها قائلة:

الحياة قصيرة يا عزيزتي وإن طالت سنوات العمر بعض الشيء، هناك مساحة محجوزة لكل منا فيها، عليه أن يستغلها كما يجب وإلا فات الأوان، إن أراد الانسان السعادة فسيحظى بها وإن استسلم للحزن فسيحكم عليه بالشقاء. هناك بعض القوانين البشرية التي تعرقل مسيرنا في الحياة، قد نضطر أحيانا للالتفاف عليها ليس لأننا أشرار بل لنعيش بسلام.

راحت تتحدث حديثا طويلا، بدت هادئة لا تشكو من مرض، أسعدني حالها هذا، ستكون هذه آخر صورة لها في ذاكرتي قبل مغادرة المكان. انتبهت وهي تغادر مقعدها واقفة قائلة: أسعدني حضورك يا سارة، أتمنى لك التوفيق.

نهضت بدوري وقد مددت يدي أصافحها فقالت:

هل أخبرك سرا يا سارة، على أن تحافظي عليه؟

طبعا يا سيدتي!

غمزت لي بعين واحدة وهي تهمس: حذاؤك الأحمر كان الأجمل! فهو لوني المفضل على الاطلاق!

تركتني وحيدة وقد عقدت الدهشة لساني، كيف لها أن تتذكر حذائي الأحمر وهي تعاني من... أيعقل أنها... مستحيل!

طرأ إلى ذهني أن هذه الدار لا تستقبل غير المسنين المصابين بالخرف، ترددت عبارتها في رأسي:" هناك بعض القوانين البشرية التي تعرقل مسيرنا في الحياة، قد نضطر أحيانا للالتفاف عليها ليس لأننا أشرار بل لنعيش بسلام".

غادرت الدار وقد مسحت الحزن عن قلبي بعد أن أدركت أن السيدة العجوز ليست بحاجة لفتاة تقدم خدمة للمجتمع!

في دياري لست غريبة

لماذا جئتم مهاجرين؟

أردنا لابنتنا أن تنمو في أرض يسودها السلام بعيدا عن الحروب والدمار.

هذا ما كان يتردد على مسامعي عندما كنت طفلة لم تتجاوز العاشرة من العمر. لن أنسى لحظاتي الأخيرة التي أمضيتها في توديع بيتنا القديم بعدما حزمت الحقائب وأسدلت الستائر وأوصدت الأبواب. تصاعدت أصوات البكاء بين الرجال والنساء من الأقرباء والأصدقاء، اختلطت مشاعر الغبطة والحزن والقلق؛ كان فرحا بمستقبل آمن في بلاد بعيدة يسودها السلام، وحزنا أليما على فراق قد لا تكون له نهاية، وقلقا من مستقبل مجهول دق نواقيسه الصادحة.

بكيت طويلا وأنا أحلق فوق السحاب أشاهد مدينتي المحترقة للمرة الأخيرة، أسندت رأسي إلى كتف أمي، راحت أناملها السحرية تكفكف دموعي وتداعب شعري المبعثر فوق جبهتي، بعين الطفولة أرسلت نحوها نظرات عتاب أن لماذا تركنا الأرض والأحباب يا أماه؟ لم تستطع منع دموع الشوق والحنين الذي استعرت نيرانه، أشاحت وجهها تريد إخفاء حزنها، أحسست بكف والدي تشد على كفي قائلا: لا تحزني يا ابنتي وقري عينا، إنما نأخذك إلى بلاد الحرية والسلام

واحترام حقوق الانسان، ستنعمين هناك بالعيش الكريم، سيأتي اليوم الذي تشكرين فيه القدر الذي أرسلك إلى تلك الديار!

كنت كالنبتة في عيني والدي، حرصا على أن تنمو في أحسن الظروف، انشغل كل منهما بالعمل لتأمين مسكن ملائم وعيش كريم، كم حرصا على أن أرتاد أرقى المدارس، كان شعورهما رائعا وهما يرياني أكبر بسلام أمام عينيهما، لم يعيرا اهتماما قط للاختلافات الاجتماعية بينما اعتدناه في وطننا المنسي وهذه الديار!

"لكل مجتمع أسلوب، وعليك تقبل المجتمع الذي أنت فيه حتى يتمكن من تقبلك" كانت تلك هي النصيحة التي قدمها لي والدي، حرصت على اتباعها بحذافيرها، قوبلت تصرفاتي بالرضى والتشجيع وهما يشاهدانني أضع الحلق في شفتي وأنقش بشرتي بنقوش تعجز الأيام عن محوها، لم يكترثا لأمر الحفلات الليلية التي كنت أرتادها، لطالما اعتبرتهما أبوين مثاليين، أتاحا لي من الحرية ما يفتقره الكثيرون، بادلاني الغمزات والابتسامات عندما دعوت شابا وسيما إلى بيتنا ذات ليلة، أقنعا نفسيهما أن اجتماعنا في غرفة واحدة موصدة الباب من أجل الدراسة وجه من وجوه التمدن والحضارة!

حرصا على عدم متابعة أخبار بلادنا القديمة، كان ما يتسرب من الأخبار كافيا ليشكرا الأقدار التي أرسلت بنا إلى هذه البلاد، لم يكفا يوما عن انتقاد وجوه التخلف التي كانا يعيشان والتي لا يزال الملايين من البشر يحيون وطأتها، تلك الأنظمة التي تفرض لباسا دون غيره

وتمنع العلاقات البشرية من أن تتخذ القالب الذي فطرت عليه حيث وضعت حدودا لطالما وصفاها بالمقيتة! كانت بلادا لا تجد للحرية بين مصطلحات قاموسها أثرا، اعتاد أبناؤها التصفيق لمن يعتلي الكراسي ويمسك بذلك الصولجان الذهبي الذي تجز تحته الرقاب.

كم فرحا بعدما تلون لساني بلغة جديدة حتى أصبحت أعجز في كثير من الأحيان عن التواصل بلغتي الأم فألجأ للثانية هروبا من التلكؤ بالحديث فلا ألقى غير الاستحسان والقبول!

تمكنت الأيام من إعادة برمجة عقولنا المهاجرة بعيدا لكنها لم تتمكن من تغيير لون بشرتنا! ذلك اللون الحنطي الذي تعود أصوله إلى تلك الصحاري البعيدة التي لا تغادر الشمس سماءها، حيث منبع الأجداد، ذلك اللون الذي لا يمكن نكرانه وإن أصاب القول لحنا ومال العقل فكرا!

كانت ليلة صيفية مقمرة تلك التي خرجت فيها بصحبة مجموعة من الفتيات والفتيان، كانوا جميعا من أصول مختلفة قدموا من بلاد بعيدة ليستوطنوا هذه البلاد ويرضعوا خيراتها، أذكر أنها كانت حفلة صاخبة تطايرت فيها الضحكات الماجنة واهتزت أرض القاعة من ضربات الراقصين فيها وصدحت الموسيقى الأجواء. أذكر أنني أسرفت في كل شيء؛ في الشرب والأكل والرقص! لم أندهش من ذلك الألم الذي اجتاح معدتي المرهقة، عصرت بطني براحة يدي أريد تهدئتها،

عجزت عن اخماد آهاتها، أدركت أن عليّ مغادرة الحفلة، لم أجد من يرافقني إلى حيث منزلي، فهذا منهمك في رقصته وتلك أعياها الشراب حتى أوشكت أن تسقط مغشيا عليها وذاك انطفأ عقله فبدا شاردا يدخن سيجارته منتشيا! انسحبت على عجل مغادرة، كانت المرة الأولى التي أخوض فيها شوارع المدينة وحيدة في ساعة متأخرة من الليل، كان الشارع مظلما انطفأت أنواره وكأنها تفسح المجال لأشباحه للتجول بحرية تحت جنح الظلام، لم يقلق سكون الشارع غير طقطقة حذائي على تلك الطرقات القديمة ومواء قطة رفعت رأسها من بين أكوام القمامة تريد معرفة القادم من بعيد فبدت عيناها كخطافين أخضرين لامعين في جنح الظلام، رحت أحث خطواتي قدر استطاعتي، وددت لو بإمكاني رمي تلك التنورة القصيرة التي ارتفعت كثيرا فوق ركبتي كي أتمكن من الإسراع في مشيتي قليلا، شعرت أن أصوات دقات قلبي باتت مسموعة لتسارعها، كان خوفي كفيلا بأن ينسيني آلام معدتي التي شعرت بالذنب لأنها كانت السبب في خوفي، حاولت بث الطمأنينة في أوصالي، تذكرت وجه أبوي اللذين لم يعرفا غير الابتسام، تناول إلى مسمعي صوتهما يقولان لي: إنها أرض السلام والأمان فلا تقلقي!

خيل لي إن الشارع بلا نهاية، كم بدا طويلا وقد اكتحل بسواد الليل، على الرغم من ذلك السواد تمكنت من ملاحظة جدار بشري اضطرني إلى التوقف بعد أن اعترضني كارهة، كان السواد يلفهم،

أخرج أحدهم مصباحا صغيرا، أرسل أشعته لتستكشف تلك الزائرة في جنح الليل.

لم يعد بإمكان معدتي أن تصبر على ألمها أكثر من ذلك فدفعت ما كان بداخلها دفعة واحدة، أثار ذلك غضب أولئك الرجال، لم يكن من الصعب قراءة الشر المتطاير من عيونهم، والغضب في كلماتهم حيث قال أحدهم: ماذا تفعلين هنا؟

أنا في طريقي إلى بيتي.

هذه أرضنا وليس لك فيها بيت، اذهبي إلى حيث تنتمين.

لا أنتمي إلا إلى هذه الأرض، عليها نشأت ولا أعرف غيرها!

أنت تكذبين حتما! لون بشرتك هذا يقول غير ما تقولين، لا يهم ما ترتدين، فأنت أنت مهما تغيرت هيأتك، ارجعي إلى حيث تنتمين، لا نريد أن تنقلوا حمى الجهل والتخلف إلى بلادنا، يكفيكم تدنيسا لهذه الأرض.

هذه بلادي ولا أعرف غيرها! فيها نشأت وفيها أحيا وأموت!

صدقت في هذا! فيها ستموتين.

كانت حركة خاطفة فاجأني فيها ذلك الرجل الذي استل سكينه ليغرسه في معدتي المضطربة، شعرت بحرارة دمي وأنا ألتقط بكفي تلك القطرات المنهمرة بغزارة، شاهدتهم يتراكضون بعيدا حتى أخفاهم الظلام تحت جناحيه الكبيرين، خارت قواي وأنا أسقط صريعة، شعرت ببرودة جسدي المضرج بالدماء، آثرت مغادرته،

كان التجول في السماء أقل وحشة من المكوث على الأرض، طفت بين أحياء المدينة التي بدت غريبة، لم تعد حفلاتها تستهويني ولم يعد صخبها يستدعيني! شعرت بضيق شديد دفعني إلى البحث عن والديّ، لم أجدهما في بيتنا، قادتني رائحتهما إلى حيث المستشفى، وجدت أمي مرتمية على جسدي المغطى بملاءة زرقاء بينما راح أبي يكفكف دموعه وهو يتحدث إلى إحدى القنوات التلفزيونية قائلا: هاجرت بعيدا كي تحظى ابنتي بحياة كريمة في كنف السلام والأمان والحرية وها هي اليوم تغادرني بلا وداع بعد أن طعنتها سكين العنصرية المقيتة!

كم تمنيت لو بإمكاني إهداءهما قبلة وداع أخيرة! شعرت روحي تختنق، كنت غريبة في دياري! كان لا بد لي من التحليق بعيدا، دفعتني نسمات الهواء عاليا فوق السحب، شعرت أن الهواء يسحبني إلى حيث لا أعلم، طفت بين ثنايات السحب المتلاصقة، كانت روحي المضطربة تبحث عن أرض تحتضنها، سمعت همسات بعيدة تناجيني، أصغيت السمع، بدت لي أصواتا طفولية تناديني من بعيد: هنا، تعالي إلى هنا.

أين؟

هنا!

أنا تائهة لا أعرف طريقي!

اتبعي قلبك وسيرشدك إلى هنا!

أغمضت عيني وأطلقت العنان لقلبي الذي قادني إلى أرض فاحت رائحتها عبقا بعدما اختلطت رائحة التراب والماء، كانت أرضا دافئة رطبة بدت طبعات أقدام صغيرة محفورة عليها، دققت النظر، كانت آثار أقدام طفلة جميلة نبتت في زمن جميل في تلك الأرض الحنون، اجتثها أهلها من تلك الأرض وقد اعتقدوا إنها ستثمر ذهبا إن هي زرعت في أرض غير هذه الأرض! شعرت بالشوق إلى منبتي القديم، تعالت الهمسات: هلميّ إلى حيث تنتمين!

رقدت بسلام تحت نخلة شامخة بعد أن تيقنت أنني لن أكون غريبة في دياري.

رفعت الأقلام

كان جوا مشحونا بالتوتر والارتباك، بدت عقارب الساعة بطيئة انحبست معها الأنفاس بينما تسارعت دقات القلوب المترقبة، كانت العيون متيقظة وهي تتابع أوراق الامتحان توزع ببطء مقيت على الطلاب الذين راحوا يتلقفونها بجزع.

يمكنكم الاطلاع على الأسئلة.

عبارة ما أن أطلقتها مراقبة الامتحان حتى تقاذفت الأيدي ما تربع أمامها من وريقات معدودات. حاولت بث الطمأنينة في نفسي المضطربة ببعض عبارات التشجيع، ذكرتها بكم الساعات التي قضيتها في الاستعداد لهذا الاختبار، كنت واثقة من قدرتي على اجتيازه بل وتحصيل أفضل النتائج فيه.

أمسكت قلمي وشرعت بمنازلة الأسئلة واحدا تلو آخر فلا أبارز أحدها حتى أرديه صريعا لأنتقل لما بعده. كان السكون يعم أرجاء القاعة الكبيرة بينما كانت عيون المراقبة حريصة على متابعة أي حركة قد تصدر هنا أو هناك، بدت وكأنها تمتلك مجسات حساسة تمكنها من سماع أبعد الهمسات، كانت مستمتعة وهي تردد على مسامعنا الوقت المتبقي بين الحين والآخر.

بقي من الوقت خمسة عشر دقيقة.

رفعت رأسي باهتمام محاولة تصديق ما قالت فعلا، أرسلت نظري نحو الساعة المعلقة أمامي أتحقق من الوقت، قارنت سرعة عقاربها مع سرعة عقارب ساعتي فبدت الساعتان متعادلتين متفقتين. كنت قد وصلت حينها إلى السؤال الأخير في الورقة، تفحصته بدقة بينما كنت أتفرس كلماته بتأن:

لو كان بإمكانك محو أخطاء الحاضر كي تتجنب البشرية التعثر بتبعاتها في المستقبل. أي الخطوات قد تتخذ لتحقيق ذلك؟ دعّم إجابتك بأمثلة.

شعرت بالحيرة تكبلني، أحسست بشلل أصاب أصابعي فما عادت قادرة على حث القلم الذي خذلني هو الآخر عندما سقط أرضا معلنا تمرده. انحنيت لاسترداده. كانت دهشتي عظيمة لحظتها عندما وجدت قزما صغيرا جدا لا يتجاوز طوله بضعة سنتيمترات وقد استحوذ على قلمي الذي بدا كبناية شاهقة إلى جانبه. عقدت الدهشة لساني بعدما عدمت الحيلة، لطالما استخففت بتلك القصص التي تروي عن الأقزام وقواهم السحرية. بدا الأمر جنونيا، عزمت استرجاع قلمي، مددت يدي نحوه أحاول استرجاعه. اتسعت دهشتي عندما أشار بيده رافضا إعادة القلم. أثار ذلك غضبي، شعرت بوجهي وقد اكتسى بطبقة حمراء علتها قطرات عرق أوشكت على التساقط. قلت وقد حبست صرخة كادت تنزلق مني عنوة:

أعد لي قلمي يا هذا، هناك سؤال ينتظر الإجابة، لا وقت عندي لأضيعه هنا، يمكنك اللعب مع غيري فأنا مشغولة للغاية.

أدهشني صوته الهادئ عندما قال:

لا تحتاجين إلى هذا القلم أو لغيره للإجابة عن ذلك السؤال. سأعطيك ما تحتاجين فعلا.

وما هو؟

خذي هذه المحاية العجيبة، إن لها سحرا عظيما يمكنك من محو كل ما تريدين محوه. بل ويمكنك محو العالم بأسره!

مستحيل يا هذا ما تقول! عدت لألاعيبك مجددا.

لا أمزح مطلقا، لكن تذكري شيئا يا فتاة، تشترك هذه المحاية مع باقي المحايات بكونها تتضاءل بالحجم وتصغر شيئا فشيئا مع كل استعمال، كوني حكيمة باستخدامها.

ما أن انتهى من عبارته حتى تلاشى القزم في الفراغ بعدما خلف المحاية العجيبة مكانه، التقطتها وأنا أقلبها في كفي، بدت فكرة سخيفة لكنني وجدت نفسي أطبقها. كان لا بد لي من تجربة سحر تلك المحاية خصوصا بعدما فقدت قلمي. اعتقدت أن لا ضير من تجربتها على "مسعود"، ذلك الطالب الذي عرف بتنمره على الآخرين من زملائه المستضعفين، مسكينة تلك القلوب التي ضاقت بقسوته، تصورت كم الدموع التي سالت من عيون أدمتها كلماته الجارحة.

اعتقدت أن محو هكذا انسان من الحاضر سينجي المجتمع مستقبلا من نفوس محطمة لن تزيد فيه إلا أسى.

رفعت المحاية وأنا أكاد لا أصدق ما أقوم به، كانت مفاجأتي كبيرة وأنا أشاهد مسعودا يختفي من كرسيه على حين غفلة! شعرت بالانتصار والفرحة فقد خلصت المجتمع من واحد من آفاته. انتهزت فرصة انشغال المراقبة مع أحد الطلاب فغادرت القاعة على عجل لا أحمل غير المحاية العجيبة وقلبا يتسارع نبضه فرحا. مررت بغرفة أستاذ الفيزياء، توقفت عنده بعدما ألحت عليّ ذاكرتي بمواقفه السيئة مع الطلاب، لطالما ميز أبناء الذوات عن العامة، استشعرت الظلم الذي تجرعته مرارا وأنا أشهد ذلك التمييز في المعاملة. أدركت لحظتها إن أستاذا مثل هذا إنما هو خطأ من أخطاء الحاضر الذي سيولد مشاكل مستقبلية لا محالة. لم أتردد بمحوه هو الآخر.

أسرعت بخطواتي إلى شوارع المدينة أريد محو كل ما يعكر حاضرنا، محوت تلك البنايات القديمة البائسة، والشوارع القذرة التي امتلأت بالمتسكعين الذين تضاءل عطاؤهم في الحياة. محوت تلك الوجوه اليائسة من الأمل بعدما فتك الفقر بها. وجدت نفسي أقف على باب المستشفى أسمع آهات وآلام تصدر من أفواه كتب عليها تجرع الألم ومقاساة الأيام. أسرعت بمحو الألم والمتألمين.

طفت بين السجون، محوت تلك العيون التي يتطاير الشرر منها والتي إن بقيت لن تورث الأرض غير الإجرام. طفت بالمدارس التي انتشرت هنا وهناك، كانت أشبه بمراكز تجارية لا تستقبل إلا من امتلأت جيوبهم بالنقود فبدا العلم معها سلعة رخيصة تباع وتشترى، محوت تلك البنايات من دون تردد.

التفت نحو البحار الكبيرة، وجدتها حزينة مثقلة بنفايات فرض عليها احتواؤها بعدما عجزت عن لفظها فباتت مياها ملوثة ضاقت بساكنيها، وجدت في ذلك التلوث ناقوسا يدق الخطر ويعد بمستقبل مخيف، محوت البحار بما فيها!

وجدت بلدانا كثيرة متنازعة وأجناسا من البشر متقاتلة ينبش بعضها لحم بعض بلا هوادة فلا يقيمون للإنسانية حرمة ولا يستحون من الأرض التي عليها هم واقفون. كنت متيقنة إن الحروب لا تخلف غير حاضر أليم ومستقبل أشد ألما. كان لا بد لي من محو تلك البلاد.

كنت مجهدة بعد كل ذلك، أصابني الإعياء، نظرت إلى المحاية العجيبة وقد تضاءل حجمها فغدت صغيرة جدا، كان لا تزال قادرة على محو شيء واحد فقط. التفت حولي أبحث عما يمكن محوه أخيرا لنعيش مستقبلا زاهرا. وجدت السكون قد أطبق على العالم، بدا عالما غريبا موحشا وقد خلا من ساكنيه، لم يكن عالما مثاليا كما ظننت، أدركت لحظتها حقيقة كانت غائبة عني. لا بد من وجود الأضداد في حياتنا، فهناك الخير والشر كما هناك النهار والليل!

كنت قد أدركت فداحة ما أقدمت عليه، نظرت إلى ممحاتي العجيبة ولم أتردد في تحديد مهمتها الأخيرة، مررتها على جسدي حتى محته برمته كي يشفى الحاضر من عقل متحجر مثل ذلك الذي كنت أحمل!

انتبهت على صوت المراقبة تنادي:

تبقى خمس دقائق وترفع الأقلام!

أدركت إنني سبحت في أحلام اليقظة، كانت أصابعي تطوق قلمي وتشد عليه، عدت من ذهولي وأعدت قراءة السؤال:

لو كان بإمكانك محو أخطاء الحاضر كي تتجنب البشرية التعثر بتبعاتها في المستقبل. أي الخطوات قد تتخذ لتحقيق ذلك؟ دعّم إجابتك بأمثلة.

استجمعت شجاعتي وأنا أدون إجابتي بكل ثقة:

لا أعتقد إن محو الأخطاء من الحاضر هو ما يضمن مستقبلا باهرا. لا يجب النظر إلى الأخطاء على أنها نقمة تثقل كاهل البشرية بل إنما هي دروس مهمة تمكننا من صنع مستقبل أفضل. فبدلا من أن تمحو وجود شخص متنمر من الحاضر مثلا ابحث في أسباب تنمره وعالجها. وعوضا عن محو البؤس والبائسين ابحث عن حلول لانتشالهم من بؤسهم. إن وضعنا حدا لمشاكل اليوم سنضمن بالتأكيد مستقبلا مشرقا.

رفعت الأقلام!

كلمات منسّية

من نافذة غرفتي مددت نظري نحو الأفق البعيد، لمحت وطناً حزيناً تلبّسته سحابة سوداء أحاطت به وقد أوشكت أن تقذف وابلها على أرضه الجدباء، بينما كانت صرخات أهله المتعالية أشبه بصواعق تكاد تخرق الآذان!

ارتعبت من هذا المشهد، فما كان منّي إلّا أن أغلقت نافذتي وأسدلت ستارتي وصممت أُذنيّ علّي لا أسمع تلك الأصوات! لكن صوتاً عميقاً في داخلي راح يدق ناقوسي حدثني قائلاً:" إلى متى تغلقين نافذتك وتسدلين ستارتك؟"

لم أحتمل ذلك الصوت، فخرجت من حيني أتخبط هنا وهناك، أشبر الأرض وأنادي السماء، أبحث عن أشعة الشمس التي ربما تكون قد اختبأت في أي مكان، علّي أجدها لأرشدها إلى ذلك الوطن الغائب في الظلمات، وطني!

بعد أن فشلت في بحثي، تناولني اليأس حيث راحت أعاصيره تتخبطني فشعرت بالضعف والأسى، عدت بعدها إلى غرفتي القديمة! نظرت إلى كتبي المرتبة على الرفّ هناك، كان لا بدّ لي من أن أجد لكلماتي طريقاً في صفحاتي المنسيّة، راحت الحروف تنطلق تباعاً لتشكل جملاً وعبارات متزاحمة، كان اليأس يسيطر عليها بعدما عرفت

أنها ستُهمَل وتُهجَر ولن تجد صدى في أذهان هذا العالم الذي لم يعد يحتوي قرّاءً ولا كتباً! وعلى الرغم من هذا وذاك، استمرت الكلمات بالاندفاع، كانت تبحث عن بصيص أمل مفقود!

نفدت أوراقي فراحت الحروف تبحث عن أوراق الشجر المتطايرة أو ربما بعض الجدران الملطخة علها تجد مساحة لبعض الكُليمات الضائعة. كانت مجموعة كلمات طويلة وأخرى قصيرة، لكنها كلها كلمات وكلها منسيّة في عالمنا المتسارع الذي ازدحم بكل شيء إلّا من القرّاء!

رحت أكتب قصة وطن جريح، وحكاية ظلم وخيانات، كتبت وكتبت حتى بدأ الحبر ينفد من قلمي فبَهُت بريق الكلمات فباتت وكأنها تحتضر! وفجأة جفّ القلم واختنقت الكلمات لكن أحداً لم يشعر بزفراتها الأخيرة! ذرفت دموعي لأملأ بها ما بقي من سطور علّها تجد من يملأها يوماً بحروف ذات صدى في عالمنا المنسي!

عندما تكون إنساناً

كانت أشعة الشمس الحارقة وحرارة الكثبان الرملية المشتعلة هي التي أجبرتني على فتح عيني، لأجد نفسي مثقلاً بجراحي ساقطاً بين مجموعة من الجثث الهامدة من جنود بلادي. كان آخر ما أتذكره أننا كنا نقاتل في هذه الصحراء الواسعة والرياح هوجاء راحت تعصف بنا وتنبش الرمال كأنها تبحث فيها عن مفقود أضاعته حتى أصبحت الرؤية معدومة، إلّا أن انفجار القنابل تحت أقدام الجنود أحدث صوتاً مدوياً سقطت على إثره مردياً على الأرض.

كانت جراحي عميقة وآلامي شديدة، ومما زاد من سوء حالي شدة العطش الذي فطّر شفتي حتى راحت تنزف هي الأخرى. أغمضت عينيّ لأريحهما من وهج الشمس، أحسست أنها لحظاتي الأخيرة، فرحت أتذكر بيتي، زوجتي، أولادي وكل من أحب. وبينما أنا كذلك، شعرت أن الشمس قد انطفأ شعاعها، أو ربما تكون قد رأفت بحالي وابتعدت قليلا، ففتحت عينيّ المثقلتين لأجد جندياً يقف عند رأسي، لكنه لم يكن من جنودنا، لقد كان جندياً عدواً لنا.

كانت الحرب تدور بين بلدينا ولا أعرف لها سببا! لقد دُفِع بنا إلى ساحة القتال وأمرنا أن نقاتل وقالوا لنا أننا ندافع بذلك عن وطننا!

ولكن لماذا؟ لم نكن نعرف! ولم يسمح لنا أن نسأل! كان ذلك المقاتل ينظر إليّ ببرود شديد، لم أكن أتكلم لغتهم، ومع ذلك، استجمعت ما بقي لديّ من رمق، فأطلقت صوتاً خافتاً قائلاً:" قطرة ماء. أرجوك أعطني بعض الماء ".

كنت أعلم أنه لا يدرك ما أقول وأنني عبثاً أحاول، وبعد هنيهة شاهدته يلتقط شيئاً، ظننت لوهلة أنه سيعطيني بعض الماء من قربته، فامتلأت أملاً، لكنه بدلاً من ذلك سدّد سلاحه صوب جبيني وتلفظ بكلمات لم أفقه منها شيئاً. أغمضت عيني ثانية وتشهدت وأيقنت أنها النهاية، لكنها بدت نهاية طويلة! لقد مرت بضع ثوان ولا زلت لا أسمع صوت إطلاق نار! هل لا زلت على قيد الحياة فعلاً؟ فتحت عيني مرة أخرى لأجد الجندي قد وضع سلاحه جانباً وراح ينظر إلى صورة كنت أحملها بيدي، لقد كانت صورتي مع أطفالي الخمسة. أعاد الصورة إليّ وقد تبدلت ملامح البرود على وجهه بأخرى دلّت على التسامح والإنسانية.

ناوشني قربته، وأعانني على شرب كفايتي من الماء، راح يعاين جراحي، تفوّه بكلام قليل وبعدها أخذ يجرني إلى حيث مغارة قريبة من مكاني لأستظل بظلها بعيداً عن حرارة الشمس، ثم أخرج قطعة قماش من حقيبته الصغيرة وراح يضمد جراحاتي بينما ناولني قرصاً من دواء لم أتردد في ابتلاعه، كل ذلك حدث ونظرات الدهشة والتعجب تملؤني، فهذا الرجل تناسا أننا فريقان يتخاصمان، وأن جيشنا قد

قتل الكثير من جنود بلاده، تناسا كل ذلك متمسكاً بإنسانيته قبل كل شيءٍ. تساءلت لحظتها عن ماذا كنت سأفعل لو كنت مكانه؟ هل أنا إنسان بما فيه الكفاية لأسلك منحاه؟ راحت الأفكار تتلاطم في رأسي بينما انتهى ذلك الرجل من تطبيبي. نهض بعدها ونبس بكليمات قليلة ثم انصرف.

أغمضت عيني لأسقط في نوم عميق استغرقت فيه طويلاً، وما أن استيقظت واستذكرت ما مررت به حتى حاولت الحركة فعبثاً كانت محاولتي، فجراحي لا زالت طريّة وآلامي لم تتوقف بعد. رحت أحاول مد بصري إلى خارج المغارة، سمعت صوت أقدام تحوم في المكان، تسارعت دقات قلبي، فمن يكون القادم يا ترى؟ أصديق أم عدو؟ ربما يكون بعضاً من جنودنا، وربما من جيش الأعداء، فالأرض كانت أرض نزاع وكل شيء ممكن عليها. فكرت قليلاً بطلب النجدة لكني تريثت؛ لأنهم إن كانوا من جيش بلادي نجوت وإلا فهو الهلاك بعينه.

ابتعدت الأقدام وعاد السكون أخيراً. كنت أتضور جوعاً وعطشاً، لم أكن أتخيل أنني قد أقضي جوعاً بعد أن نجوت في ساحة القتال! وبينما أنا على حالتي تلك، وإذ بوقع أقدام تقترب مرة أخرى، لكن هذه المرة كانت أقداماً متسارعة، لم تكن سوى أقدام ذلك الجندي "الإنسان" الذي أنقذني، لقد أتى إليّ حاملاً بعض الخبز والماء

والدواء. كانت فرحتي برؤيته عظيمة، فارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة ورحت أشكره حتى وأنا على علم أنه لا يفهم لغتي.

بقيت في تلك المغارة أسبوعاً كاملاً، والرجل يأتيني كل يوم بالماء والطعام والدواء، حتى تحسنت حالتي وأصبح بإمكاني السير من جديد. وفي آخر مرة حضر فيها ذلك الرجل، استقبلته واقفاً مبتسماً، رحت أنظر في عينيه البنيتين، فقلت له: "لن أنساك يا أخي ما حييت ولن أنسى صنيعك معي." ثم احتضنته وودعته وانطلقت عائداً إلى دياري.

مرّ على تلك الحادثة ثلاثون عاماً، حصل فيها الكثير، وقامت خلالها حروب كثيرة، وانسالت دماء أكثر، لكني لم أشارك بأي منها، فلم يكن لديّ خيار غير الهروب إلى أرض المهجر بعيداً عن الدمار والحروب. وفي بلاد المهجر، كان من الضروري محاولة التعرف على أناس مهاجرين أيضاً لنتشارك حديثنا واهتماماتنا، فانضممت من أجل ذلك إلى جمعية خصصت للمهاجرين لسرد قصص الماضي.

كان يومي الأول هناك، حيث اجتمع فيها عدد لا بأس به من رجال ونساء من بلاد مختلفة راح كل منهم يروي قصصاً من بلده، حتى حان دور رجل خمسيني العمر، فأخذ يتحدث عن الحروب وويلاتها في بلاده، حيث كان جندياً، وأنه ذات يوم أنقذ عدواً بدافع الإنسانية، وأن هذا العمل كان من أروع ما قام به في حياته. راح يسرد قصته وأنا أكاد لا أصدق ما أسمع، فما كان مني إلّا أن قمت من مكاني وتوجهت

نحوه والحضور في دهشة من أمرهم، حتى أن الرجل توقف عن الكلام بعد أن دهش هو الآخر. وقفت أمامه، والتقت أعيننا كل منها تتفحص الأخرى، ثم رفعت قميصي كاشفاً عن خاصرتي التي لا زال أثر الجراح فيها شاهداً على قساوة الحروب.لم يصدق الرجل ما رأى، احتضنني وانهالت دموعنا حرّى وقال:" أنت أخي". فبعد أن فرقتنا بلادنا، جاءت بلاد المهجر لتجمعنا ثانية لتثبت أن الإنسانية هي أسمى وأغلى شيء يملكه الإنسان.

في ربوع لحن حزين

تلبدت السماء بالغيوم وقد وارتِ الشمسَ بسوادها الرهيب، وتشابكت أغصان الشجر مجتمعة لتقاوم صرصرة الريح. وقفت أمام النافذة وقد جذبني صوت الرياح المصفقة بحرارة فكنت "مدعوة بلا دعوة". أُضيئت الأنوار على المسرح الكبير عندما برقت السماء معلنة عن الفرقة الموسيقية التي بدأت بالعزف، ثم رعدت مبدية إعجابها بالعزف الجميل، والأشجار تتمايل يميناً ويساراً انسجاما مع اللحن العذب، ثم حضر المطرب الذي أشبعت وقعاته أرضنا العطشى.

شعرت بالبرد يتسرب إلى أوصالي الضعيفة، فلم أجد بدّاً من احتساء فنجان قهوة ساخن يريح النفس من بعض همومها، أخذت الفنجان ثم نظرت مرة أخرى نحو الطبيعة لأرى الحفلة في أوجها، أدرت وجهي وسرت بخطوات متثاقلة نحو مكتبي الذي بدا مظلماً على الرغم من أشعة الشمعة المرسلة. جلست هناك والضجر مُخيّم على وجهي وطأته أشد من وقع الليل على النهار، فالتجأت إلى المحبرة والريشة "صديقتاي الوفيتان" وأخذت أسطر كلمات وعبارات قلت فيها:

" كان يوماً كثير الغيوم شمسه خافتة ونسماته باردة، حيث أكدّ على قدوم فصل الصقيع الذي لا يرحم الفقير ولا يخفف من وطأته

على الضعيف، فولّت العصافير بزقزقتها من بلادنا باحثة عن أرض أكثر دفئاً وحناناً من أرضنا المتجمدة أو التي كادت تتجمد.

في ذلك اليوم الرهيب، اجتمع الناس كما اعتادوا أن يفعلوا في أصيل كل يوم، اجتمعوا في ساحة المدينة أمام المحكمة والأصوات هنا وهناك متناثرة كحبات عقد متفرقة. كنت في الثامنة أو التاسعة من عمري لا أدرك ما يجري حولي تماماً. أذكر أني كنت أزاحم الجماهير الصافّة أريد أن أحظى بمكان لي بينهم في مقدمة الصفوف، وهكذا كان. لم أكن أعرف لِمَ التجمع! فلم تكن ليلة عيد، ولم يولد شخص مهم ولم يحدث شيء في البلاد! فدفعني فضول الطفولة البريء إلى البقاء معتقدة أن الناس لا يجتمعون إلّا في الأفراح، وما أحلى الأفراح بالنسبة للأطفال!

وقفت مكاني أنظر إلى وجوه العامة، كانت وجوهاً تعبة أرهقها الزمان وأثقلها بمتاعبه الدائمة. رحت أصغي إلى كلام المتحدثين علّي أفهم شيئا عن هذا التجمع وسببه، سمعت من قال:" من سيكون التالي يا ترى؟ " فأجاب صوت آخر دلت نبرته على الشيخوخة والهرم:" من يدري؟ البارحة كان ابن جارنا، والذي سبقه ابن صديقي، فربما التالي هو ابني أو أخي وأكون أنا غداً! ما أدراني؟ "

سمعت صوتاً أكثر حزناً يقول:" أنت على حق يا صاحبي، ليتنا نكون كالطيور التي هاجرت، تستطيع الرحيل أينما أرادت ويمكنها الرجوع حيثما شاءت".

أجاب الصوت الأول:" لو كنت مكانها لما عدت أبداً! "

سمعت ذلك الحوار لكني لم أفهم منه شيئاً! فأي سابق وأي تال يقصدون؟ وبينما كنا على تلك الحال، سكت الجميع وشخصت أبصارهم نحو باب المحكمة الذي فتح بهدوء شديد فخرج شخص دلّت معالمه على الهيبة والوقار، يبدو أنه رئيس البلدة أو عمدتها وخلفه أشخاص آخرون بدت خطواتهم غريبة وملامح وجوههم أغرب، لم أستطع منع نفسي من السؤال فقلت مندفعة:" ماذا يجري؟ " لكنّ رجلاً كان يقف إلى جانبي أسكتني قبل أن أكمل سؤالي قائلاً:" أسكتي الآن يا صغيرة " سكتّ على مضض وتابعت ما يجري باهتمام.

خرج من الباب شيخ كبير، لقد كان القاضي وخلفه مجموعة رجال يجرّون بحبال زنزانة حديدية فيها رجل ضخم الجثة عريض المنكبين جاحظ العينين ممزق الثوب والكرامة وفي تلك اللحظة ارتفع صوت من بين الجمع صائحاً مستغيثاً:" لا أرجوكم إنه ابني، وحيدي! " التفتُّ مذهولة وإذا بي أرى الرجل العجوز الذي كان يتحاور مع غيره قبل قليل، فزادت حيرتي! تابع قائلاً:" أرجوكم خذوني أنا واتركوه. أتوسل إليكم." رأيت الناس وقد نكّسوا رؤوسهم فدلت هيأتهم تلك على عجزهم عن فعل شيء أو استدراك ما قد يحدث، أما الرجل المسكين فقد سحبه بعض الرجال بأمر من العمدة ولم يسمع للرجل بكاء بعد ذاك!

عمّ السكون ثانية والحزن قد هبط على قلوب الناس كانقضاض الصقر على فريسته الضعيفة. كنت واقفة في مكاني لا أعرف كيف أربط الأحداث لأخرج منها بمعنى مفيد، كان الأحرى بي بعدما حدث أن أغادر وأبحث عن مكان آخر يناسب من هم في سني، لكن فضولي آثر المكوث والمتابعة وهكذا فعلت.

رأيت رئيس البلدة "المخيف" يصعد منبر الساحة خاطباً في الناس قائلاً:

" يا سكان بلدتي العزيزة، وحرصاً منّا على سلامتكم وأمنكم فإننا في سعي دائم على اقتناص الكلاب الضالة المتشردة والعمل على تأديبها لتنعموا بالراحة والسكينة في بيوتكم الهانئة، وها نحن اليوم نقف أمام من يحول بيننا وبين تحقيق هدفنا السامي النبيل." راح الرجل يشير إلى الرجل المسجون في الزنزانة ثم تابع قائلاً:" وقد أحلنا أمر محاكمته إلى المحكمة العادلة السامية لتنظر أمره وتحقّ الحقّ، وقد جعلناكم شهوداً على عدل هذه المحكمة وصواب قرارها. فلتبدأ هذه المحاكمة الآن ".

نزل عن المنبر وقد زادت عينه حقداً وزاد شررها تطايراً. كانت وجوه السامعين مظلمة، رؤوسهم المنكسة لا تستطيع إخفاء ما يخالجها من مشاعر، كانت أصواتهم تنبعث من القلب لتسير عبر دمائهم المتوهجة وعندما تصل إلى أفواههم تُقتل فلا تجد لنور الحرية

سبيلاً، لذلك كان السكوت قائماً خوفاً من الجنازة المنتظرة واحتراماً لصاحبها المظلوم.

وفي تلك الأثناء، اعتلى قاضي المحكمة المنبر، كانت ملامحه أشدّ رهبة من ملامح العمدة، حيث خطّطت التجاعيد وجهه فشكلت شوارع مزدحمة، كانت حركاته رزينة تجلب الأنظار بثباتها، وفجأة قطّب القاضي حاجبيه الأبيضين وقال بصوت غليظ:" نفتتح جلستنا هذا اليوم بقضية هذا المتهم الذي يقف أمامكم ها هنا، إنه متهم بقتل جندي من جنود الدولة وهذا جرم شنيع يعاقب عليه القانون، وقد اعترف المذنب بجرمه بنفسه. وقبل اصدار الحكم عليه سنتيح للمذنب أن يدافع عن نفسه بما قد يخفف عليه عقوبته آخذا بعين الاعتبار أنّا لا نتهاون في تحقيق العدالة مع أي شخص كائناً من كان".

أصابتني الدهشة مرة أخرى، فما أسرع تلك المحاكمة وما أغرب متحدثها! يتيح المجال للدفاع وهو يقول إن الحكم صادر لا محالة! فما الغاية إذاً من المحاولة إذا كان العقاب معدّاً مهما قال المذنب؟ كنت أفكر واستمع إلى كلام القاضي الذي تحدث كثيراً، لكنّي لم أفهم من حديثه شيئاً، لقد ذكر المواطن وحقوق المواطن، وذكر العمل وحب البلدة، وذكر الأغنياء وعطفهم على الفقراء، تكلم كلاماً كثيراً لم يكن له على أرض الواقع نصيب. كان يتحدث وابتسامة العمدة البشعة على شفتيه الغليظتين دالّة على رضاه على كل ما يحدث وما

سيحدث. بعد كل ذاك، توجه القاضي ببصره نحو السجين وقال:" من سيدافع عنك أيها المتهم؟ "

نظر الرجل السجين نحو القاضي بعينين دامعتين وكأنهما بصيص ضوء انطفأ وقال:" أنا يا سيدي فقير، لا أملك حتى ثمن أنفاس حرة ". امتعض القاضي من كلماته تلك فزجره وقال:" إذاً تكلم أنت وقدِّم ما لديك من حجج وتبريرات ولكن لا تخرج عن الموضوع." رفع السجين رأسه المنكس وفي ملامحه التعبة رغبة أكيدة بتوديع هذه الحياة التي دفعت به إلى الهاوية، فقال:" نعم. سأتكلم، سأخاطب أبي وأخي وجاري وأبناء بلدتي، كل أولئك كانوا معي وشهدوا معي، فماذا أقول ومن أين أبدأ؟ " زجره القاضي مرة أخرى وقال: " دافع عن نفسك ولا تطل الكلام ".

نطق السجين بصوت أشد انكساراً من الذي سبقه:" أجل يا سيدي، أنا عبد فقير أعتاش على زراعة أرضي التي هي أرض أبي وجدّي من قبلي، أعطتنا الكثير حتى شاخت وهرمت. ومع بداية شتاء هذا العام، لم ترحمنا الرياح الباردة التي صبّت غضبها فوق أرضنا فقتلت بما تحمله من ماء غزير البذور مانعة إيّاها من الظهور على أديم الأرض ومن رؤية أشعة الشمس، وهكذا كانت الأرض هذا العام مقفرة، فلم أجد ما أطعم به أبنائي الأربعة وجدهم العجوز، لم أجد ما أطفئ به أنين معدتهم الذي راح يقطّع أحشائي وأنا أرى دموعهم تجري على وجوههم الصفراء يريدون كسرة خبز يأكلوها. كانوا يرجونني

وأنا ثائر كالمجنون جالس في كوخي الحقير مختبئ من الرياح الباردة التي لحقتني إلى بيتي فدخلته من دون استئذان فزادت الحال برداً وجوعاً، فأخذت أضمّ تراب الكوخ البارد إلى صدري محاولاً تدفئته بأنفاسي الضعيفة، وأبي إلى جانبي يسعل ويداه مرفوعتان إلى السماء طالباً العون من الذي لا ينسى عبده.

وهناك، بينما كنت على حالتي تلك مع أطفالي الجياع، طرق الباب طرقة عنيفة دلّت على الشّر الذي يحمله المستقبل القريب الذي جاء به طارق الباب. نهضت من زاوية بيتي وأطفالي حولي اختلط بكاؤهم برعشة أجسادهم النحيفة، تقدمت نحو الباب بتثاقل وخوف، فماذا عسى الأيام فاعلة بنا بعد الذي فعلت؟ فتحته وإذا بي أرى رجلاً تعرّفت ملامح وجهه بسرعة لأني كنت أراه نهاية كل شهر، إنه الجابيّ المسؤول عن جمع الضرائب، جاء يأخذ مني ثمن الهواء الحرّ الذي تنفسته وعائلتي خلال الشهر. نظر إليّ نظرة احتقار وقال بصوته المتعجرف:" عليك أن تدفع الضريبة الآن، لقد صبرنا عليك أسبوعاً كاملاً ولا مجال لك بعد الآن فإمّا أن تدفع وإمّا..." فاندفعت قائلاً:" وإمّا ماذا؟ قلت لكم أنّ أرضي هذا العام مقفرة لم تنبت ولا سنبلة واحدة وأنا لا أجد لقمة يومي فمن أين أدفع لكم؟ قلت لكم هذا مراراً فلم لا تصدقوني؟ "

نظر إليّ الجابي بطرف عينه التي امتلأت خبثاً وقال:" ليس من شأننا ما جرى لأرضك، عليك أن تدفع الآن".

فقلت بصوت راجٍ:" أرجوك يا سيدي من أين لي أن أدفع؟ من أين؟ "

فنظر إليّ بعينين تبثان المكر وقال غامزاً مشيراً إلى أرضي:" يمكنك بيعها، ستسد ثمن الضريبة."

لقد فاجأني قوله، الأرض! كيف أبيعها وهي جزء مني؟ وهي التي أطعمتني وأطعمت أهلي؟ أأكون ناكراً؟ وماذا أصنع بعد بيعها؟ ماذا أفعل؟ فأجبت بصوت منكر لما سمع قائلاً:" لا، وألف لا، لن أفعل ذلك ولو اضطررت لتقطيع جسدي وبيعه لأسد الثمن."

رفع الجابي رأسه ناظراً إلى عيني وقد برقت عيناه وكأنه وجد ضالته:" يمكنك فعل ذلك حقاً أتدري! " نظرت إليه مستنكراً أريد تفسيراً، فأشار إلى إحدى بناتي وقال:" يمكنك الاستغناء عنها فلديك غيرها، يمكنني أخذها بدلاً من الضريبة، فتضمن بذلك بقاءك وبقاء أرضك، أيرضيك هذا؟ ".

سمعت ذاك الهراء وأنا أكاد لا أصدق ما أسمع، أحسست أنّ دمي اشتعل غضبا وقد ارتفع إلى وجنتيّ، شعرت أن جسدي قد التهب وارتفعت حرارته. في تلك اللحظة عصفت ريح باردة لطمت وجهي موبخة إيّاه على رذالة موقفي، سعل أبي سعلة حادة وهو على فراشه نائم هناك. لم أستطع قول شيء حينها، لكنّي نظرت إلى الجابيّ وقلت:" أيمكنك الانتظار يا سيدي لحظة؟ سأعود حالاً ". فقال بصوته اللّئيم:" لا تتأخر".

أغلقت الباب وأخذت أطفالي فوضعتهم في زاوية من الكوخ وغطيتهم بغطاء وقلت لهم:" ابقوا هنا ولا تتحركوا ". ثم اتجهت نحو صندوق موضوع على الأرض ففتحته واستخرجت منه سكيناً، ضممته إلى صدري وكأني استلهم منه القوة بعد أن وصلت الإرادة في قلبي إلى أوجها، حملته وقد سترته بمنديل أسود ثم توجهت نحو الباب، وجدت الرجل لا يزال واقفاً حيثما تركته، قلت له والعرق يتصبب من جبيني: " لقد فتَّشت في منزلي جيداً فعثرت على ما فيه رد لكرامتي وحلاً لديني. لقد وجدت في كوخي ما كان عندي منذ زمن طويل لكنّي كنت غافلاً عنه لا أجرؤ على استعماله حتى جاء الوقت لذلك ".

فقال الجابيّ ممتعضا:" أنتم هكذا دوماً، تكنزون الأموال وتدّعون الفقر، آه منكم أيها المحتالون، هيا هات المال ولا تضيّع وقتي أكثر مما أضعته."

لحظتها شعرت أن جسدي لم يعد يحتمل حرارة دمي الملتهب بالحماسة فقلت وقد أزحت المنديل عن السكين:" خذ هذه أيها السافل الحقير، خذ يا من أخذت منّي الكثير، سلبت مني مالي، جهدي وعرقي، سلبت مني راحتي وطمأنينتي والآن تريد سلب ابنتي، يا لك من طماع شره!"

سمعت الرجل يسرد حكايته، لقد بكى بكاء مرّاً وبكيت معه، أدركت حينها أنه رجل مظلوم. لم أعهد الرجال يبكون، لكنّه بكى، كان بكاء رجل حرقت الأيام كبده.

لكنه مسح عبراته وقال مستدركاً:" لقد طعنته. أجل، كان لا بدّ من موته. لقد فضلّت لأبنائي أن يكونوا أبناء شخص قتل في سبيل الكرامة، لا أبناء شخص سكت على بيع أبنائه من أجل راحته. لقد قتلته. نعم. أنا خارق للقانون، للحقّ وللعدالة التي قرّرت أن يدفع العبد الحقير ثمن حريته الزائفة من دمه وعرقه ليشبع أفواه الشرهين. لقد قتلت يا أبناء بلدتي الغالية، قتلت ولم أحترم القانون الذي جعل مجموعة جرذان سادة علينا ". ثم سكت ونظر إليّ وأنا بين الجمع واقفة هناك وشزرني بعينيه الغاضبتين قائلاً:" خرقت القانون الذي جعلنا كلاباً لهؤلاء، جعل أبنائي خدماً لهم. " ثم أشار إليّ بسبابته قائلاً:" أنتم رأس البلاء، أنتم من يأخذ عرق جبيننا وسهرنا لتلهو به. المهم أن تحيوا ونموت نحن جوعاً."

هناك، تدخل رئيس المحكمة فأسكته قائلاً بصوته الغليظ:" يكفيك أيها السجين ما قلت، لقد تجاوزت حدودك كثيراً، وها أنا الآن أضيف تهمة الاعتداء على سمعة المحترمين من أبناء الأمة، أضيف هذه التهمة إلى تهمتك السابقة." فقال الرجل بسخرية:" ما عاد يهمني يا سيدي، بحق عمدتنا العزيز ما عاد يهمني شيء".

أثارت كلماته القاضي والعمدة معاً، فقال القاضي هائجاً:" أنت حقاً انسان عديم الأخلاق تستحق العقوبة القصوى." ثم وجّه كلامه للمستمعين الذين كان لهم حق الاستماع من دون تعليق فقال:" أيها الناس، بناء على التهم الموجه إلى هذا السجين، وبناء على اعترافاته

التي سمعتموها، فقد قررنا نحن هيئة المحكمة ومن أجل إحقاق الحق دوماً، حكمنا على المتهم أمامكم بالشنق حتى الموت. آملين أن يكون آخر شرذمة الفساد والانحلال في بلدتنا الآمنة. رفعت الجلسة." ثم نزل من على المنبر، وأُخذ السجين بعيداً، وتفرق الجمع من حيث أتى، والناس في تساؤل عمّن سيكون التالي يا ترى؟!

فرغت ساحة المدينة من البشر، فلم يبق فيها غير صدى الكلام الذي تناثر مع الهواء. بقيت هناك وأنا أفكر في الرجل السجين الذي حكم عليه بالموت، تساءلت لم كان يكرهني؟ فأنا لم أفعل له شيئاً ولم آخذ ماله يوماً! لم أستطع نسيان صورة عينيه البائستين ويديه المكبّلتين بالحديد.

عدت بعدها إلى منزلي، استقبلتني المربية بتلهف قائلة:" أين كنت يا عزيزتي؟ لقد قلقنا عليك كثيراً. هيا إلى الداخل فالهواء بارد هنا. هيا إلى حيث المدفأة ".... تذكرت كوخ السجين الذي كان يخلو من كل شيء إلّا من البؤس والشقاء. شعرت لحظتها أني بدأت أفهم بعض الأمور!

رفعت يديّ عن الدفتر بعد أن نفدت المحبرة ولم تعد الريشة قادرة على كتابة المزيد، لمست فنجان القهوة فوجدته قد برد، وضعته جانباً وقمت تاركة مكتبي متوجهة نحو النافذة، نظرت من خلالها فوجدت السكون قد عمّ الطبيعة وقد انتهت الحفلة وانصرف الجمهور، نظرت إلى القمر الذي أزاح الغيوم عن وجهه الوضّاء

وقلت:" اشهد يا قمر. يا زهرة الّليل المتلألئة أنّ أرضنا حنون، وطبيعتنا أشدّ حناناً، لكنّ عنصر الشرّ موجود دوماً إلّا أنه ممقوت محارب من الكثيرين باليدّ واللّسان والقلب".

ثم ابتعدت عن النافذة وأسدلت الستار والدمعة مترقرقة بين المقلتين...

أَعين غاشية

أفقت يوماً من نومٍ عميق فوجدت الغبار قد اعتلاني، انتفضت من سريري ورحت أنظر إليه بنظرات الريبة الفتاكة منكراً له بعدما كان قد احتواني واحتواني! ركضت من حيني هائماً على وجهي، مخترقاً الشوارع والساحات علّي أجد فيها شخصاً أعرفه، لم أجد سوى أناس نُوَّم يسيرون ويتحدثون وإلى لا شيء يحدقون! رفعت صوتي مستغيثاً فلم يغثني أحد، صرخت وصرخت لكن عيناً لم تلتفت وأذناً لم تسمع، فكان لا بد لي من الركض مجدداً.

عبرت سهولاً وتسلّقت جبالاً، سرت بين وديان ومشّطت هضاباً، لكنّي لم أجد من يسمع ويعقل. رفعت أعلاماً ونصبت خياماً علّها تكون دليلاً، لكنهم كانوا بشراً لا يصغون، وينظرون لكنهم لا يفقهون، فهم دوماً ناعسون وعن التقاعس باحثون!

كذّبوني وطردوني وعن أرضي أبعدوني، وعندما ضاقوا بي ذرعاً، من الجنون اتهموني وجاؤا بقفص وأرادوا به أن يضعوني! هناك صرخت عالياً: لا لا! لا داعي لذلك. فأنا راجع إلى سريري الحنون لآخذ غفوة علّ الغبار يغطّيني من جديد ولا أجد للصحوة باباً ولا سبيل!!

فقد نفْسَه حينما وجدها

عندما كانت الشمس باسطة نفوذها على سماء البلاد، تضرب بأسواطها الذهبية الرائح والغادي، كنت أسير في جنبات الشارع الذي يطوّق المدينة، وبينما كانت خطواتي ثقيلة قصيرة، وإذا بي أسمع صوت أنين محرق يخرج من حنجرة دلّ صوتها على طول البكاء وشدّته، رحت التفت يميناً ويساراً باحثاً عن صاحب ذلك الصوت، حينها وجدت نفسي أمام رجل عجوز جاوز عقده السابع، جالس تحت ظل شجرة هرمة لم يتبق من أغصانها إلّا القليل المهترئ. نظرت إلى عينيه فكانتا قد اشتعلتا حمرة رهيبة، وجدت يديه قد امتلأتا طيناً غطّى به وجهه وشعره.

كان منظراً مثيراً للشفقة حقاً، لم يسعني حينها إلّا أن أجلس أمامه وقد امتلأت عيناي حزناً ودهشة، ولكنّه لم يعرني اهتماماً وكأنني لست موجوداً. لقد زاد ذلك من حزني فلم أتمكن من حبس الكلمات في فمي حتى اندفعت منه قائلاً:" ما خطبك يا عماه ولِمَ البكاء؟ "

رفع عينيه الداميتين ناظراً نحوي ثم طاف بهما بعيدا عني متجاهلاً سؤالي وهو مستمر في بكائه المرير. زاد ذلك من حيرتي! فهو ليس بمظهر متسوّل يسعى إلى التحايل، ودموعه لا تدلّ على مجنون فقد بيانه، لقد كان رجلاً يحمل في عبراته كلمات ومعان.

دفعني ذلك إلى السؤال ثانية وثالثة، وعندما تعبت من سؤاله، وضعت يدي على كتفيه وقلت:" أتشكو من وجع يا عمي؟ قل لي، قد أتمكن من المساعدة؟ " حينها، رفع عينيه ثانية نحوي وغصّ غصة كادت تمزّق أذني لما تحمل من ألم وحرقة، ثم قال بصوت أجهش تعب من كثرة البكاء:" نعم يا ولدي. إني أشكو من ألم موجع في قلبي، لكن لا أحد يستطيع مساعدتي."

شجعتني كلماته المحزنة على المتابعة:" اروِ لي حكايتك يا عماه علّي أتمكن من فعل شيء!"

رفع الرجل رأسه إلى السماء وكأنه ينظر إلى شيء بعينه ثم قال:" سأروي لك حكايتي وسبب حزني"، سكت بعدها ثم أطرق قائلاً:" كنت فتىً قوياً مفتول الساعدين عريض المنكبين لا أعرف التعب أتمتع بشبابي كما يحلو لي ويطيب، كنت أعيش في بلدي بين أهلي وأصدقائي، لكن حياتي تلك لم تعجبني! كنت دوماً أسعى نحو الجديد والتجديد. لطالما شعرت أن هناك شيئاً مفقوداً مني لكني لم أكن أعلم ما هو؟! قررت السفر بعيداً عن الأهل والديار لكي أجد نفسي، ومن هنا كانت مصيبتي!

كنت رجلاً ذا مالٍ وثروةٍ، جمعت مالي لأسافر به حول العالم لأجد نفسي! أبحرت في البحار المتلاطمة وتسلّقت الجبال الشاهقة، عشت في الصحاري القاحلة وسكنت في المناطق المتجمدة. جربت حياة الأرياف وذقت طعم التمدّن، اختلطت بشعوب من مختلف الأديان والألوان والأعراف، تعلمت شتّى اللّغات، كنت دوماً أبحث هنا وهناك وأفتّش في كل مكان علّي أجد نفسي!

نظرت إلى النجوم، إلى الشمس وإلى القمر، إلى الطيور وإلى الأسود، إلى النسيم العليل وإلى الريح الصرير، أمعنت في حال الإنسان قويّه وضعيفه، غنيه وفقيره، سعيده وحزينه، بحثت فيهم جميعاً عن نفسي، عن هويتي، ولكنّي بعد كل هذا وذاك لم أجد نفسي!

نظرت في المرآة ذات يوم، فلم أجد ذاك الشاب الفتّي الذي تشعّ نظراته قوة وعزيمة، بل وجدت هيكلاً غطّاه جلد مترهل هزيل، وشعراً اشتعل بياضاً، ووجهاً خطته التجاعيد وصيرته أرصفة! لم أكن سوى عجوز هرم، فأدركت حينها أن رحلتي قد انتهت بالفشل. فبعد كل تلك المسافات وبعد مضيّ كل تلك السنوات لم أجد نفسي!

حينها قررت العودة من حيث أتيت، لقد عزمت العودة إلى الديار ورؤية من تبقّى من الأهل والأصدقاء. وفعلاً بدأت مشوار العودة، حتى وصلت إلى أرضي، وما أن وضعت قدمي عليها حتى ارتميت على التراب أقبله وأشمّ عطره، لقد كان عطراً فريداً فاق رائحة الزهور التي عرفتها، كان هواء بلدي نسيماً عليلاً يلاطف ثنايات وجهي بحنان كأم

فرحة بعودة ابنها بعد طول غياب، حينها ارتسمت البسمة على شفتي اليابستين وصرخت بأعلى صوتي: لقد وجدتها! لقد وجدتها! لقد وجدت نفسي، لقد وجدتها! ثم رحت أرش التراب على وجهي وصدري فرحاً بما وجدت!

نعم، لقد كانت روحي ونفسي في أرض وطني، في تلك الأرض التي انبتتني يافعاً وصيرتني رجلاً، لقد كانت نفسي في أرضي، لكنّي لم أدرك ذلك إلّا بعد وقت طويل لغشاوة كانت على بصري! وبينما كنت سعيداً هائماً بما وجدت، شعرت بلطمة على وجهي أردتني أرضاً، فتحت عيني مدهوشاً وإذا بي أجد رجالاً بهيئة عساكر، لم تكن ملامحهم تدل على وطنية أو انتماء، سألوني إن كان معي تصريح بالدخول؟ أجبتهم والدهشة تعقد لساني: وما الداعي للتصريح وأنا على أرض وطني؟ فما كان منهم بعد أن سمعوا هذه الكلمات إلّا أن ركلوني وضربوني وأخرجوني من أرض بلادي قائلين لي إن هذه الأرض لم تعد ملككم، فالأرض لمن هم أقوى ونحن هم الأقوى!

لقد شتموني وضربوني وأبعدوني عن أرضي، أبعدوني عن ترابي، أبعدوني عن نفسي، لقد فقدت نفسي بعد أن وجدتها! لقد أضعت نفسي بعد أن وجدتها!"

وهنا غصّ العجوز غصّة أعنف من سابقتها وكرر قوله:" لقد أضعت نفسي بعد أن وجدتها! فقدت نفسي بعد أن وجدتها!" واستغرق في بكائه ونحيبه ثانية على ما كان وصار.

أَيام معدودات

حينما بان القمر على عرشه ولمعت النجوم من حوله، انتصفت الساعة معلنة انقضاء النصف الأول من اللّيل. كانت أنفاسه قصيرة سريعة تسابق صوت عقارب الساعة في إيقاعها. كانت عيناه المتعبتان تتجولان بين حنايا غرفته الواسعة الناعمة تارة وبستانه الأخضر الذي اكتحل بسواد الليل وهو فوق شرفته الرحبة تارة أخرى.

كانت شفتاه يابستين، كان في ذلك تذكير بموعد الدواء، أخذ منه رشفة تجعّد لها وجهه تذمّراً من مرارة الطعم. راح يجوب الغرفة بأنحائها، أحسّ أنه سجين في صندوق أنيق لا يملك الخروج منه، فالبرد في الخارج خطر على صحته التعبة، وجسده هزيل لا يحتمل غير ملازمة الغرفة.

لقد كان رجلاً فاحش الثراء، راح ينظر إلى صورته في المرآة فإذا به يسترجع شريط حياته الطويلة القصيرة! وجد فيه رجلاً قوياً امتلك من أسباب القوة ما لا يتصوره إنسان، فملك المال والأرض وأسباب السعادة، لكنه لم يتمكن بعد كل ذلك من الصمود أمام عدوّ الإنسان اللّدود: المرض.

لم يجد بدّاً من الاستنفار، جمع الأطباء من شتى البلاد، تناول من الأدوية أشكالاً وألواناً من دون ما جدوى أو فائدة، فالمرض قد استفحل في جسده وراح ينخر فيه حتى وصل ذروته.. كان يعلم أنها لم تكن إلّا أياماً معدودات ويغادر قصره الناعم من دون ما عودة ..راح ينظر إلى هاتفه الملقى بعيداً، حاول أن يتذكر آخر مرة سمع فيه صوت أبنائه البعيدين عنه لكنه لم يستطع، تذكر كم كان مشغولاً عنهم في صباهم لانهماكه بأعماله التي أكلت سنيّ حياته، راحت الأفكار تتضارب في رأسه فأحسّ بتعب شديد، فكان لابد من العودة إلى السرير بعد أن استسلم لأنّات أوصاله، استلقى على ظهره وقد أثقل الكرى مقلتيه المتصاغرتين، راح نور غرفته يتضاءل وهو يطبقهما، بينما كان يتمتم بصوت ضعيف:" هل سيكون نومي الأبدي يا ترى ؟ أم أني سأحظى بيوم آخر تتجدد فيه وحدتي؟" وهناك استسلم لنوم عميق.

جراحات

كانت السماء شديدة السواد وقد أبى القمر أن يظهر معلناً حداده على زماننا الذي ضرجته الجراح. ساد السكون الأرجاء إلّا من أنين خافت بعيد، اقتربت من مصدره فوجدت الوطن قد افترش الأرض وقد بانت عليه علامات الارهاق والهرم، كانت جراحه عميقة تنزف بشدة، فأوصاله مقطّعة مجزّأة استحوذ الأعداء عليها وقد تركوه صريعا وحيداً بلا رحيم.

هلعت مما رأيت، رحت أحاول وضع ضمّادات واسعافات، كنت أريد أن ألملم أشلاءه المتناثرة علّي أخفف عنه بعضاً من آلامه، كنت أبحث في حقيبتي عن عقار ربما يسكّن أوجاعه، لكن يده استوقفتني أن لا حاجة له لشيء من ذلك. ملأتني الدهشة وأحسست بالعجز يقيدني، فماذا عساي أفعل وحبيبي ملقى على الأرض بلا حول ولا قوة؟ راحت عيناي تتجولان في بحر عينيه الكبيرتين اللّتين كانتا تحكيان قصة وطن عريق عمره من عمر الأزل البعيد، طعن مراراً وتكراراً وهو يقاتل وحيداً صامداً كالسباع حتى جثا على ركبتيه قبل أن تنهار قواه ويسقط. أشار إلى قلبه النزيف. كان الدم أحمراً عبيطاً فوّاراً، لكنّه لازال ينبض حباً وكرامة وشموخاً رغم الجراح والأسى.

لم يرد مني أن أطببه، فارتسمت على وجهي علامات الحيرة من أمري، فأومأ إلى قوس ونشاب وسيف إلى جانبه، لمعت عيناي

واستلهمت القوة من دمائه الطاهرة فانتفضت من مكاني وارتديت القوس وحملت النشّاب بيد والسيف بأخرى، هناك برقت عيناه المتعبتان أملاً.

جثوت عند قدميه أقبلهما والدموع تخنق حنجرتي أن فلتنعم يا وطني فنحن فداك، فعروقي التي تجري دمائي فيها وأنفاسي من خير ترابك. ثم انتفضت والعزم يملئني ورحت أسير بخطوات واثقة وابتسامة النصر الأكيد قد ارتسمت على وجهي .. حينها، لمحت نجمة أشرقت في الظلام لتزيّن سماءنا الكحيل.

المحطة

كانت خطواتها جريئة متسارعة، بينما تعالى صوت نفسها الملتهب، وضعت يديها في جيبيها بينما كانت عيناها متجهتين نحو الأرض كأنهما تبحثان عن شيء أضاعتاه، لم تكن ترى المارّة الذين ازدحم الطريق بهم في المحطة، فقد كان ذهنها مشغولاً بالحبيب الذي طال غيابه وما من موعد لعودته.

مرّ عامان كاملان على فراقهما، على آخر مرة تلاقت فيه عيناها مع عينيّ زوجها الذي لبس لباس الحرب وتوجّه إلى المحطة ملبياً نداء الشرف دفاعاً عن أرض احتضنته وسرى حبها في وريده. كانت نظراته لها ملأى بالحب والوعد بالنصر والعودة إلى أرض الوطن.

ومن حينها، اعتادت ارتياد المحطة مع كل قطار قادم علّه يكون قد أقلّ الحبيب البعيد، وبينما كانت أفكارها تتخبط بين الأمل واليأس، سمعت صفير القطار القادم من بعيد، كان صوت عجلاته وهي تدور على السكّة الحديدية يزيد من حدة ضربات دقات قلبها، هل تراه يكون القطار الذي طالما انتظرته؟

تسمّرت في مكانها، وقد تساقطت قطرات العرق من جبينها الأسمر الذي غدا أحمراً قانتاً، رفعت رأسها ببطءٍ شديد، حولت السيطرة على أنفاسها المتسارعة،

راحت عيناها تراقبان القادمين على متن القطار تتفحصان الوجوه بترقب. وما هي إلّا دقائق معدودات حتى نزل كلّ من في القطار. لم يكن زوجها بينهم!

أخرجت المرأة منديلها، مسحت عرقها ثم أعادت يديها إلى جيبيها وصوبت عينيها إلى الأرض ثانية ثم راحت تخطو خطواتها مسرعة عائدة من حيث أتت لتعيش مع ذكرياتها البعيدة، لم تكن لتسمح لليأس أن يغزو أفكارها، أخذت تحدث نفسها قائلة:" لا بد إنه سيأتي مع القطار القادم. أنا واثقة. لا بد".

موجة

رحت أقلّب نظري بين أمواج البحر المتلاطمة، كم أعجبت بألوانه وقد اندمجت خضرته بزرقته. كان البحر هائجاً كعادته في مثل هذا الوقت من السنة. راحت الأمواج تصفّق مع بعضها صعوداً وهبوطاً مرسلة نسيمات مبلولة تداعب وجهي الذي غدا مبلولاً هو الآخر.

مددت نظري في الأفق البعيد، لمحت شيئاً يقترب من اليابسة، كان يدنو ويدنو مسرعاً، ظننته قارباً تناوشته الأمواج وجعلته يدور ويدور أشبه بمهد طفل رضيع، اقترب أكثر فأكثر، رحت أحدّق فيه لأتعرف ماهيّته فلم تكن سوى موجة عالية كبيرة، لم أر لها مثيلاً من قبل! لقد بدت كرجل بذراعين كبيرتين، ورأس يعلو رقبة طويلة. شدّت الدهشة أنفاسي بينما شخصت عيناي على ما تريان، حينها سمعت صوتاً أشبه برعد اخترق البحر قائلاً:

"مسكين أنت أيّها الإنسان، فأنت أشبه بموجة تبدأ صغيرة تتقاذفها الرياح وسرعان ما تكبر هذه الموجة ويعلو مقامها بين الموجات وتفرح لما وصلت إليه، حتى تأتي موجات أخرى لتحلّ مكانها فتنتهي صغيرة كما بدأت حتى تتلاشى!"

وما أنهت الموجة كلماتها تلك حتى عصفت بها ريح شديدة أجبرتني على إغلاق عينيّ لحظات قليلة، وما أن فتحتهما ثانية حتى كانت الموجة قد اختفت، ثم شعرت بدغدغة الماء البارد لقدمي. ابتعدت مذهولة مما رأيت وسمعت، رحت أحثّ خطاي على الشاطئ متلفتة بين حين وآخر نحو البحر المتلاطم غير مصدقة لما شهدت قبل قليل، بينما لا زالت الكلمات يتردد صداها في أُذني.

عالَم كُلّه سلالم

أذكر إنه منذ نعومة أظافري لطالما جذبني منظر السلالم التي يصعدها الراشدون رجالاً كانوا أو نساءً، كنت أحاول دوماً أن أطيل النظر إليها وكأنني أُروِّض نفسي على امتطائها لأنني كنت أعلم أنني سأستقل واحداً منها في يوم من الأيام.

كانت سلالم مختلفة، منها الطويل ومنها القصير، منها المستقيم ومنها المتعرج، كانت سلالم عجيبة حقاً، لكن ما كان يثير دهشتي فعلاً أن أناساً كانوا يتسلقون سلالم سلسة سهلة كما كان يبدو، ولكنّهم ومن دون إنذار يغيرون سيرهم ويتدحرجون، وربما يتعثرون ويقعون. لم أكن أدرك المغزى من ذلك كله!

أذكر دوماً تلك السلالم التي لا تكاد تبدو قمتها لأنها قابعة في الظلام، ذلك الظلام الحالك الذي قد يبتلع من يدخل فيه، ومع ذلك كنت أشاهد أناساً يتجهون نحوه. لطالما وصفتهم بالجنون! أفإلى الظلام يسيرون؟ ومنه ماذا يرجون؟

كم كنت أحاول صمّ أذنيّ لأمنع ذلك الصراخ المدوّي من أولئك الذين يقعون عن سلالمهم، أو من أولئك الذين يظنون أن سلالمهم لا زالت في بدايتها وفجأة وفي حين غفلة يدركون أن درجاتهم قد نفدت وما عاد هناك سلَّم ولا درجات!

كنت أعتقد أن السلالم معدّة لكل منا، وما علينا إلّا أن نتبع الدرجات واحدة تلو الأخرى، كان هذا ما اعتقدت حتى أتى اليوم الموعود الذي لطالما أرّقني واضطرب قلبي عند التفكير فيه، إنه ذلك اليوم الذي كان علّي فيه أن أخطو خطوتي الأولى على سلمي، كنت خائفة حذرة مترقبة، قد يُسمح لي حيناً أو ربما أحياناً أن أتكأ على الجدار، لكن اتزاني على سلمي هو سرّ النجاح كي لا أقع على حين غفلة.

لم تكن السلالم جاهزة أبداً! لقد اكتشفت الأمر أخيراً، فدرجات السلالم أشبه ببذور يرمي بها المزارع في أرضه التي أعدها للزراعة مسبقاً، فإن كان قد بذل جهداً في إعدادها، نبتت تلك البذور وأينعت لتعطي محصولاً جميلاً، وهكذا حال السلالم. فنحن أشبه بالمزارعين، وما نعمل اليوم نجنيه غداً بدرجات إمّا أن تكون ثابتة متينة تحافظ على توازننا، أو مهترئة صدئة ترمي بنا إلى الهاوية. قد تتشابك السلالم أحياناً وقد يتشارك المتسلّقون أطراف الحديث فيما بينهم، أو ربما يكتفون بتبادل النظرات، لكن لابدّ لكل متسلّق الحفاظ على رباطة جأشه.

ففي ذات يوم، حدث أني رأيت شيخاً كبيراً، أضاف الشيب وقاراً واحتراماً لملامحه، كان فرحاً بسلّمه بعد أن زيّنه بأنواع المصابيح وعطّره بأطيب العطور. تبادلت أطراف الحديث معه علّي استفيد من خبرته الطويلة على ذلك السلّم، فراح الشيخ يحدثني عن كمّ الأناس

الذين مدّ لهم يد العون وعن الأموال الطائلة التي أغدقها في بناء دور العبادة وإصلاح أحوال البلاد وعن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وزهده في هذه الدنيا وكيف افترش الحصير مع تمكنه من اقتناء أكبر القصور، حدثني عن كل ذلك والنشوة تعلو صوته وفرحته بأنّ أعماله أصبحت حديثاً للناس ومضرباً للمثل! أصغيت السمع باهتمام ممزوج بدهشتي من هذا الرجل، كيف حوّل أعماله إلى أمجاد يتفاخر بها! تابعت سيري على سلّمي وإذا بالرياح تعصف بشدة، أغمضت لها عيني وتمسكت بالسلّم حتى لا أقع، بقيت على حالي بضع لحظات، وما إن هدأت الرياح حتى أفزعني عدد السلالم التي وقعت وتحطمت وأوقعت من كان عليها، رحت التفت يمنة ويسرة، أمد نظري باحثة عن ذلك الشيخ فلم أجده! لقد وقع هو الآخر مع سلّمه ومصابيحه!

أعجب من أناس يبنون بيوتاً وقصوراً على سلالمهم تلك! أي عاقل يفعل ذلك يا ترى؟ أفلا يعلمون أن السلالم وجدت لتوصلنا من بداية إلى نهاية وأنها أشبه بقنطرة؟ وأن النهاية آتية مهما بعد مداها؟ تابعت سيري على درجات سلّمي، بالتأكيد أعلم عدد الدرجات التي قطعتها، فبداية سلّمي أراها لكنني بالطبع لا أرى نهايته، أقريبة أم بعيدة؟ سأحرص دوماً على اقتناء أجود البذور لأحصد أفضل المحاصيل في عالم كلّه سلالم...

أكره الحرب سيدي

في يوم احتلت فيه الشمس عرش السماء مرسلة أشعتها الذهبية في كل مكان طاردة كل غيمة من سماء البلاد، وقد خيم القحط والجوع على أديم الأرض العطشى بعد أن امتنعت قطرات المطر عن إغاثة أهل هذه البلاد. كان يوماً حاراً شديد الحرارة، علت فيه أصوات النحيب التي حلت مكان تغاريد الطيور المهاجرة بعدما اختفت رائحة البساتين الزكيّة لتنتشر بدلاً منها رائحة الجثث المتعفنة.

لم يكن سوى طفل في السادسة من عمره، ارتسمت على وجنتيه الابتسامة الوردية التي خالطها ألم الجوع والحرمان، وقد بدت في عينيه السوداوين ووجه الأسمر الحالم تعابير الإرادة والتحدي وهو ينظر إلى نخيل قريته الذي يتطلع إلى السماء بجلد واصرار متيقناً من الغيث الذي لابدّ له من الهطول!

في صباح ذلك اليوم، طرقت أيد غليظة باب بيت ذلك الطفل الصغير، فاستيقظ أهل الكوخ وكأنهم في انتظار ذلك النداء! هبّ الأب الشاب من مكانه وقد امتلأت عيناه بالدموع الحارة وكذلك كانت زوجته، راح يحضن صغيره الذي ألحّ في طلب الإجابة على سؤاله البريء:" إلى أين يا أبتي؟

" لم يمهلهم الطَرْق المتعالي كثيرا، فانتفض الأب من مكانه وعيناه مصوبتان إلى كوخه الذي لن يراه أبداً بعد اليوم.

راحت الأم تعانق صغيرها وتقبّله وكأنها تراه بعد طول غياب، والصغير يبكي لبكائها وهو لا يفقه شيئاً مما يدور حوله، فألحّ بالسؤال قائلاً:" إلى أين ذهب أبي يا أماه؟ ومتى سيعود؟ " نظرت الأمّ إلى ولدها وعيناها قد غدتا بحراً واسعاً امتلأ بعبراتها الساخنة، ثم قالت بعد طول صمت:" لقد ذهب أبوك إلى الحرب يا ولدي. لقد ذهب أبوك للقتال يا صابر!".

لقد وجد الصغير "صابر" في عبارة أمه تلك إجابة تسوّغ كل ما رأى، لقد أدرك أن أباه ذاهب بلا عودة كحال بقية رجال القرية الذين ضاقت الأرض بجثثهم المنتشرة هنا وهناك والتي حلّت مكان القمح والورود، ولكنّه أراد أن يثبت لنفسه ولأمه أنه رجل قويّ قادر على تحمل المسؤولية، أخذ يمسح دموعه البريئة ثم قال بينما كانت شهقاته تتردد في صدره الصغير:" لا تبتئسي يا أماه. فأنا رجل ولن أدعك تحتاجين لشيء أبداً " لكن جَلَدَهُ وصبره لم يمنعاه من ذرف دموعه، ارتمى في حضن أمه التي راحت تداعب وجهه وشعره الأسود وهي فخورة بابنها الذي لم يذق حلاوة الطفولة ومعنى الأمان وقالت:" بالطبع يا ولدي الحبيب، بالطبع ".

وما هي إلّا أيام قلائل حتى انتشر وباء مبيد بين الناس، لم يكن هذا الداء يطرق باب بيت حتى أضعفه وأتى على من فيه من دون رحمة أو شفقة. حتى جاء الأجل المحتوم؛ حيث دخل الوباء بيت صابر، فوجد في أمه جسداً سهل عليه النيل منه. جلس صابر قرب أمه المستلقية وراح ينظر إلى تعابير وجهها المتألمة، كانت تتأوه آه بعد أخرى والدمعة على خدها الأصفر الهزيل. كانت تنظر إلى ولدها وتحدثه بنظرات صامتة عجز لسانها عن النطق بها بعد أن أُثقل جسدها بالمرض الشديد. ما كانت إلّا ساعات قليلة حتى حانت ساعة الأجل، تعالت أنفاسها ليتردد صداها في الغرفة الفارغة، وراح العرق يتصبب من جبينها الذي التهب من حرارة الحمى العنيدة التي أصابتها، فلم تجد الأم بدّاً من الكلام بعدما أحست بدنو أجلها. قالت لطفلها الذي لم يكن يدري ما يفعل:" أنا مسافرة يا بني إلى مكان بعيد وسأغيب طويلاً، فكن ولداً مطيعاً صابراً محباً للخير كارهاً للشرّ".

خذيني معك يا أماه، فليس لي أحد سواك، أرجوك خذيني معك.

نظرت إليه أمه بعينيها الذابلتين وقالت: لا يا بني، هذا ليس كلام الرجال، ألم تقل لي أنك رجل؟

هزّ الصبي رأسه موافقاَ، أغمضت الأم عينيها وانقطع نفسها، فارتمى صابر على جسدها باكياً على أمه التي سافرت بسرعة. لقد أصبح صابر وحيداً في كنف الأيام، لا يملك غير هذا الكوخ الطيني وبعض حبات تمر لم يبق منها إلّا القليل.

وفي صباح يوم جديد بدا أشد حرارة من الذي قبله، حيث انخفض فيه مستوى النهر عن المعتاد، ضجّت القرية المريضة بأصوات متعالية أتت من الأفق البعيد، فهبَّ من فيها من شيخ وامرأة وطفل وقد أذّن فيهم مؤذّن أن الأعداء قد انتصروا على أبناء البلاد. فما كان من الشيوخ إلّا أن رفعوا أيديهم ضارعين راجين الخلاص، أما النساء فلم يجدن غير النحيب ملتجأ يلجأن إليه، أما الأطفال فراحوا يبكون لأن القرية تبكي ولم تعد تضحك كما كانت.

وما هي إلّا سويعات حتى دخل الجيش المنتصر أبواب القرية، احتشد الناس كقطيع خراف أُعدت للذبح، لم تكن إلّا خرافاً هزيلة أرهقها الجوع والمرض، فلم يكونوا غير شيوخ هرمت أجسادهم، ونساء لا يملكن غير النحيب والحسرة، وأطفال لا حول لهم ولا قوة. أما الجيش المنتصر فقد كان أفراده يتمتعون بأجساد ذات بنيان قويّ وكأنهم عمالقة الزمان! كانوا بقامات طويلة وأيدٍ غليظة وأسنان بارزة. أما قائدهم أو زعيمهم، فقد كان أشدهم رهبة وأكثرهم وحشية، كان وجهه أزهراً طغى حَمَارُه على بياضه فبدا أكثر قسوة ممن معه.

وما كانت غير دقائق من احتشاد أهل القرية حتى اعتلا الزعيم مكان مختار القرية، وراح يبث نظراته المخيفة هنا وهناك، والجو يسكنه الصمت المريب الذي داخلته أصوات بلغة لا يفقَه منها شيء، لقد وقعت القرية في شِباك عدو أجنبي. وهناك انقطعت الأصوات، ونطق الزعيم ببضع كلمات بالكاد تُفهم، كشّر فيها عن أنيابه حيث

قال: لقد انتصرنا عليكم نحن جيش الشمال، ولا طاقة لكم اليوم بنا، فعليكم بالطاعة والطاعة فقط، وإلّا سيكون الموت جزاء كل من يخالف أوامرنا.

لم يكن للناس إلّا أن صمتوا، الصمت ولا شيء سواه، أدار الزعيم وجهه مغادراً، لكن صوت طفل صغير قطع ذلك الصمت قائلاً: سيدي الزعيم! سيدي الزعيم! التفت الزعيم وقد أرسل نظراته المخيفة نحو ذلك الطفل "صابر" وقال: ماذا تريد أيها الجرذ الحقير؟ فما كان من صابر إلّا أن ذرف دموعه وقال:" سيدي أنا أكره الحرب لأنها خطفت مني أبي وقتلت أمي وأبقتني وحيداً. أكره الحرب سيدي! ثم غاص صابر في بكاء حارّ ألهب النفوس، فما كان من أحد الجنود إلّا أن تقدم نحوه ولطمه لطمة أوقعته أرضاً، ثم أمر الزعيم حاشيته أن يأتوه بذلك الجرذ الصغير إلى مقصورته وهكذا كان.

في ليلة ذلك اليوم التي احتجب فيها القمر عن وجه الأرض خلف النجوم البعيدة وكأنه لا يريد أن يشهد على ما يحصل في البلاد، كان النخيل كئيباً حزيناً يندب أيامه ويبكيها بعد أن وقعت الأرض بيد غزاة أجانب، كان النهر قابعاً في مكانه لا يريد الحراك حداداً على قتلى البلاد. كان صابر لا يزال في زنزانة الزعيم، والظلمة الموحشة أنيسه الوحيد. فجأة فتح الباب فسمع أصوات أقدام غليظة تطرق أرض الزنزانة لكنه لم ير شيئاً من شدة الظلام، كان قلبه الصغير يدق بقوة حتى كاد ينفجر من سرعة نبضاته، ثم شعر بيد غليظة تمسك بعنقه

بقوة حتى كاد يختنق، فقال بما بقي عنده من نفس:" ماذا هناك يا سيدي؟ "

أجاب الرجل بكلمات لم يفهم منها شيئاً! لقد كان عدواً بلغة أجنبية. وهكذا رفع الرجل "صابر" بيد واحدة من عنقه، وسار به في ممر أو نفق بدا أشد ظلمة من الزنزانة، وفجأة توقف وطرق باباً بدا من حديد ثم فتحه فلم يتمكن صابر لحظتها من فتح عينيه من شدة النور الذي اجتاحهما بعد ظلمة طويلة، عندها خرج الرجل بعد أن تركه يسقط على الأرض.

لقد بدت الغرفة لصابر وكأنها تتراقص من حوله فتمالك نفسه ونهض من على الأرض بعد جهد جهيد ليجد نفسه أمام الزعيم ذي الوجه الأزهر. ارتعد صابر في مكانه وكاد يذرف ما بقي لديه من دموع، راح الزعيم يحدق في وجه صابر وبعد صمت ليس بالقصير قال الزعيم: ما اسمك أيها الجرذ الصغير؟ كاد صابر يسقط مغشياً عليه عندما سمع ذلك الصوت المرعب لولا أن الزعيم أمسكه بيديه الغليظتين ثم أعاد السؤال بحدة وغضب شديدين وقال: قلت لك ما اسمك أيها الجرذ الحقير! فأجابه صابر ويدا الزعيم لا تزالان تعصران ذراعيه: صابر يا سيدي الزعيم. صابر!

هل تكره الحرب يا صابر؟

هزّ صابر رأسه موافقاً والخوف والألم يعصرانه، فما كان من الزعيم إلّا أن قذفه نحو الباب وصرخ قائلاً: غبي! سأجعلك محباً لها

أيها الجرذ الحقير. ثم صاح بصوت أشد من زئير الأسد، فدخل رجلان وأخذا صابر إلى زنزانته المظلمة. لم يفهم صابر لحظتها إلّا شيئاً واحداً هو أنه وقع في أيدي أشرار لا يرحمون!

مرت أيام قليلة بقي فيها صابر حبيس زنزانته الموحشة، لم يكن يفعل فيها شيئاً غير ذرف ما بقي في عينيه من دموع، كانت دموع حزن وخوف وشعور بالغربة في هذا العالم الواسع. كان تفكيره أضيق من أن يدرك ما يجري حوله، فلم يكن يدري لِم هو في هذه الزنزانة؟ فهو لم يقل شيئاً سوى إنه يكره الحرب، فهل في ذلك جرم؟ فكره الحرب هو ما علمته إيّاه أمه وما أكدّته رائحة الجثث المتعفنة، فلِم غضب الزعيم عندما قال ذلك؟ ولِم يريده أن يكون محباً للحرب؟ أيحبها وهي التي أخذت أباه وقتلت أمه ودمرت قريته؟ كان صابر بتساؤلاته تلك أشبه بقشة تتقاذفها أمواج بحر بارد فلم يخرج بعد كل تلك الأسئلة إلّا بحيرة وبمزيد من الدموع.

وفي صباح يوم بدا شبيهاً بغيره من الأيام، حيث لازالت الشمس حارقة والهواء ساكنا كأنه لا يزال في حداد على القرية، سمع صابر أصواتاً تعلو وجلبة هنا وهناك، وإذا بالقافلة تتحرك ومعها زنزانة صابر، لقد كان وقت الرحيل ولكن إلى أين؟ والقرية؟ أخرج صابر يديه الصغيرتين من بين القضبان محاولاً ملامسة تراب أرضه للمرة الأخيرة لكن من غير جدوى! فما كان منه إلّا أن أطلق صرخة اختلطت بالبكاء رنّ صداها في الأفق أن أعيدوا لي حريتي، لكن لا من مجيب!

سار الركب عبر صحراء كبيرة قاحلة لا شيء فيها سوى الكثبان الرملية، ساروا وساروا حتى ظن صابر أنهم متوجهون إلى عالم آخر لطول ما قطعوه من مسافات حتى تجاوزوا الصحراء الكئيبة داخلين أرضاً خضراء بدت أشجارها متلاصقة من شدة كثافتها، فكان لذلك المنظر وقع جميل على قلب ذلك الطفل الصغير، خفف عنه بعض ما كان فيه . وبعد أسابيع طويلة من السفر والترحال، قُرع ناقوس في الركب أن قد وصلنا الديار، فهلّل من في الركب فرحاً بعودته إلى موطنه إلّا صابر الذي شعر أن الغربة والخوف يطبقان على رقبته ويوشكان على خنقه، فما كان منه إلّا أن لجأ للبكاء ولا شيء سواه.

مضت بضع أيام بقي خلالها صابر قابع في قفصه الحديدي لا يكلم أحداً، كان الصمت رفيقه في كل لحظة، راح يستعرض كل ما مرّ به، فكان صوت أمه الدافئ يرن في أُذنيه ليبث الشجاعة في صدر ذلك الصغير الغريب. وبينما هو جالس في إحدى زوايا القفص الضيقة ، فتح أحد الحراس باب الزنزانة وأشار إلى صابر بالوقوف ، لم يكن ذلك الحارس ليختلف عن غيره من الحراس، أحكم قبضته على رقبة صابر وراح يسير به حتى وصل إلى حديقة كبيرة لم يتمكن صابر من تحديد حدودها، فما كانت غير بضع خطوات حتى هوى صابر أرضاً بعد أن أفلته ذلك العملاق، تمالك نفسه وراح يحمل جسده الهزيل ليقف وهو يفرك عينيه بعدما كانت أشعة الشمس قوية سلّطت أشعتها

سهاماً في عينيه. وجد نفسه أمام الزعيم بوجهه الأزهر والذي بدا أكثر شراً من ذي قبل.

شعر برجفة تسري في عروقه الضعيفة لكنه حاول جاهداً كتم دموعه البريئة، فهو رجل كما عاهد أمه ولا يليق البكاء بالرجال. راح الزعيم ينظر إلى صابر بعينين ملؤهما الازدراء والسخرية حتى قطع صوته الغليظ حبل الصمت قائلاً: أتحب أن تلعب يا صابر؟ ارتسمت ابتسامة الطفولة البريئة على وجه صابر التعب الذي كاد ينسى اللعب فانفع قائلاً: أجل يا سيدي.

داعب الزعيم لحيته الحمراء الطويلة وقال: "حسناً يا صابر، انظر إلى تلك الأرانب الجميلة، اذهب والعب معها ثم اختر إحداها ليكون صديقاً لك، ما رأيك بهذا؟

انطلق صابر وقال: شكراً يا سيدي، هذا رائع. جرى نحو الأرانب، كانت أرانب رائعة الجمال راحت تركض هنا وهناك وصابر يركض معها وضحكاته تملأ أرجاء المكان، لقد كان يضحك والسعادة تغمره حتى كادت تنسيه ما جرى له.

راح الزعيم يراقب صابر وقد ارتسمت ابتسامة شريرة على وجهه، رجل تجاوز الاربعين من عمره عُرف بالقسوة والقوة فقد كان مالكاً لبقاع واسعة امتدت شرقاً وغرباً حتى ذاع صيته فوصل أقصى البلاد، كان قائداً لجيشه الذي اشتهر بالقوة وعدم الرحمة، فما إن يدخل بلداً حتى دمره واستولى على ما ومن فيه.

وبينما كان الزعيم مراقباً لما يجري حوله، ركض صابر نحوه وقد أمسك بأرنب أبيض جميل، وقف أمام الزعيم بينما كانت أصابعه الصغيرة تداعب الأرنب وكانت الابتسامة الواسعة تعلو وجهه ثم قال: لقد اخترت هذا الأرنب ليكون صديقي يا سيدي.

حقاً! ارتعد صابر مكانه حتى كاد يفلت الأرنب من ذراعيه، فتابع الزعيم قائلاً: حسناً يا صابر، ثم أخرج سكيناً حاداً وأعطاه لصابر وقال له:" اذبح هذا الأرنب يا صابر.

تسمّر صابر في مكانه ولم ينطق ببنت شفة! فصرخ الزعيم قائلاً: اذبحه الآن! فلم يتمالك صابر نفسه فراحت العبرات تنهال مجدداً على خده الذي اختلطت سمرته بحمرة وقال بصوت باكٍ راجٍ: لماذا يا سيدي؟ لقد اخبرتني أن أختار صديقاً لا أن أذبحه! فزأر الزعيم قائلاً: قلت لك اذبحه! ركع صابر بينما كان الأرنب لايزال بين ذراعيه والسكين بيده، كانت يده ترتعش وهو يقرب السكين من عنق الأرنب الذي راحت دموع الطفل الصغير تبلل رأسه، وهناك سقطت السكين من يده أرضاً بينما أفلت الأرنب الذي سارع بالهرب بعيداً تاركاً صابر جاثياً على الأرض في موجة من البكاء.

كان صابر ينتظر العقاب وهو في زنزانته الصغيرة، وفعلاً كان ذلك، فقد منعوا عنه الطعام والشراب ليومين حتى هزل جسده وأصابه الجفاف فما عاد قادراً على اصدار المزيد من الأنّات والآهات، فاستلقى على بطنه محاولاً تهدئتها، وبينما هو على حاله تلك، فتح

الباب فكان ذلك الحارس الغليظ الذي حمل صابر وكأنه يحمل جرذاً وسار به إلى الحديقة ليرمي به أمام الزعيم الذي راح يتفقد صابر بعينيه تارة وبقدمه تارة أخرى. لم يكن صابر قادراً على النهوض من شدة الإعياء فلم يقو إلّا على فتح عينيه ليدرك ما يدور حوله. وهنا أمر الزعيم بإحضار ذات الأرنب " ذاك الذي اختاره صابر" فوضعوه أمام صابر ووضعوا أمامه سكيناً وصحناً قد ملئ بأصناف الطعام الشهية. فقال الزعيم: اذبح الأرنب وكل ما تشاء! فأجاب صابر بما بقي فيه من رمق: لا أريد طعاماً. اشتعل الزعيم غضباً لما سمع حتى تطاير الشرر من عينيه فركله بقوة وقال: تباً لك أيها الجرذ العنيد. خذوه!

وهكذا رُمي به في زنزانته ثانية، كان جثة هامدة لا تقدر على الحراك. وفي اليوم التالي، أحس صابر أن معدته كادت تتمزق جوعاً وأن جسده قد بات ضعيفاً لا يقو على التنفس، ظن أنه مسافر إلى حيث سافرت أمه، لكن الجوع كاد ينسيه كل شيءٍ سوى التفكير بالطعام! وبينما هو على ذلك الحال، فتح الباب ثانية، لقد جاءوا ليأخذوه إلى الحديقة حيث الزعيم الذي وقف وقفة دلّت على انتصاره واعتداده بنفسه فقال: هل تأدبت يا صابر؟ هيا اذبحه! استجمع صابر ما بقي فيه من قوة فأمسك السكين ورفعه عالياً فبدا لامعاً تحت أشعة الشمس ثم هوى به في قلب الأرنب المسكين! حينها ابتهج الزعيم وقال: أحسنت يا صابر! والآن كل ما تشاء. نظر صابر إلى يديه الملطختين بالدماء وحاول مسح دموعه الجافة ثم التفت إلى صحنه المليء وأخذ يلتهم الطعام بشراهة والزعيم

ينظر إليه ويضحك ضحكات الاستهزاء قائلاً: أيها الجرذ الحقير، لقد قتلت صديقك! ثم انصرف تاركاً صابر منهمكاً بطعامه.

وفي مساء ذلك اليوم، تجمعت غيوم سوداء غطت سماء البلاد لتشكل صفحة سوداء غطت وجه القمر، بينما راح المطر يتساقط بغزارة ليروي الأشجار التي أخذت تتمايل استجابة للرياح الباردة التي راحت تصرصر هنا وهناك لتزيد من وحدة صابر وخوفه. لقد كان المكان مظلماً ساكناً إلّا من صوت الرياح والمطر. حاول صابر أن يسلِّم نفسه لسلطان النوم، أغمض عينيه الدامعتين لكن صوت فتح الباب أجفله، فتح عينيه وهو مترقب خائف، نهض من مكانه على عجل عندما تبين له وجه الزعيم الذي زاد من بشاعته ضوء المصباح، فتح الزعيم باب الزنزانة وأخرج صابر منها وراح ينظر إليه ذات النظرة؛ نظرة الاستهزاء والسخرية ثم قال:" ما رأيك يا صابر بالاستحمام؟ "

ارتسمت ابتسامة بريئة على وجه صابر، فقد تذكر الحمام الساخن الذي كانت تعده له أمه فيما مضى، فرحب بالفكرة لكنه قال متسائلاً:" الآن؟! " فأجاب الزعيم:" ولم لا يا صابر؟ " ثم قهقه الزعيم وأشار إلى أحد حراسه أن هاتوا به.

لم يكن الحمام ساخناً، ولم يكن الماء ساخناً أيضاً، بل لم يكن هناك حمام أصلاً! فقد رمى الحارس بصابر في أحد جوانب الحديقة المكشوفة حيث الهواء بارد والمطر يتساقط بغزارة، وقد ربطوا قدميه ويديه فكان عاجزاً عن الحراك ثم انصرفوا عنه! أخذت الرياح تعصف

بجسد ذلك الصغير الذي اختلطت دموعه بحبات المطر بينما تبددت صرخاته مع الريح.

في صباح اليوم التالي، فرقّت الشمس بيديها الذهبيتين ما تبقى من سحب، لتكشف عن صفحة النهار الجديدة أخذت تجفف ما بللته قطرات المطر ليلاً فكان لابد لها من أن تداعب الأزهار والحشائش الندية التي تفتحت استجابة لقبلة الصباح هذه. لكن شيئاً واحداً لم يتحرك! إنه جسد ذلك الصبي المسكين الذي لم تسعفه أشعة الشمس الدافئة فبدا كعصفور صغير وقع من عشه وفارق الحياة!

بقي صابر مرمياً هناك حتى جاء الزعيم وحراسه، أخذ يتفحص الصبي بقدمه وكأنه يبحث في قمامة عفنة، ثم قال بصوت مخيف: انهض أيها الجرذ! لكن لا من حراك! فأشار إلى أحد حراسه أن أفقه، فأمسك الحارس بيد صابر ثم تركها فزعاً وقال: إن حرارته مرتفعة جداً يا سيدي! فهمهم الزعيم وقال: خذوه إلى أحد الغرف واعتنوا به، أريده حياً، أتفهمون؟

أمضى صابر ثلاثة أيام بلياليها في فراش دافئ في غرفة مريحة بعيداً عن قسوة البشر وقسوة الطبيعة، سلّم نفسه لنوم عميق فكان وجهه حالماً ارتسمت عليه الابتسامة على رغم مرارة حاله! كانت حرارته مرتفعة فالتهب جسده واحمرت وجنتاه، سهر على علاجه الأطباء والخدم حتى استقرت حالته.

كان الزعيم حريصاً على متابعة حالة صابر الذي ما أن فتح عينيه بعد طول إغماض حتى وجد الزعيم أمامه فأجفل مرتعباً حتى كاد يصرخ خوفاً ثم قال بصوت متعب ضعيف: أرجوك يا سيدي، سأفعل ما تريد، أرجوك لا تؤذني!

لم يحرك الزعيم ساكناً، بل ابتسم ابتسامة باردة وقال: ما بالك يا صابر؟ لم يكن سوى درس بسيط لأصنع منك رجلاً محارباً لا يخشى الموت، أفلا تريد ذلك؟

تذكر صابر لحظتها قريته وما عانته من ويلات الحروب، تذكر أباه الذي اختطفته الحرب وأمه التي أوصته بحب الخير ونبذ الشر، فغصّت حرقة في حلقه وكاد يصرخ أكره الحرب ولا أريد أن أكون محارباً قاتلاً للأبرياء كما حالك! لكن وجه الزعيم المخيف، ومنظر الأرنب المذبوح وقسوة الرياح والمطر وخوفه من الوحدة في ظلمات الزنزانة المخيفة أوقفته ودفعت الكلمات تخرج من فمه بحزن قائلا: أشكرك يا سيدي على كل شيء.

ارتسمت معالم الرضا على وجه الزعيم وقال وهو يداعب لحيته الحمراء: أحسنت يا صابر. ها قد بدأت تفهم. ثم استدار وهو يقول: امتثل للشفاء سريعاً، فهناك المزيد من التدريب!

بقي صابر وحيداً في فراشه، كان سريراً واسعاً ناعماً لم يستلق على مثيل له سابقاً، راحت عيناه تجوبان أنحاء الغرفة التي بدت واسعة جداً فُرشت بأحلى الأثاث وأثمنه، بدا كل شيء كبيراً حوله،

تلملم في فراشه ليدثر نفسه، أغمض عينيه علّه يكون كابوساً يستيقظ منه ليجد نفسه في حضن أبويه يلعب في ربوع قريته مع أقرانه في مروج النخيل، وهكذا سلّم نفسه للكرى ليغرق في بحر أحلامه!

سرعان ما امتثل صابر للشفاء مستردا عافيته، ليغدو طفلاً نشطاً لكنه احتفظ بابتسامة الطفولة لنفسه بعد أن وجد أنها لطالما أزعجت الزعيم وجلبت المصائب له! راح ينظر من نافذة غرفته التي أطلت على ساحة الحديقة الواسعة، فكان منظر أزهار الربيع خلّاباً وقد تراقصت الفراشات حولها، فشكلت لوحة فنية رائعة، زاد جمالها أشعةُ الشمس الذهبية التي راحت تداعب الأزهار والطيور لتزيد من بهجتها. أحسّ صابر برغبة شديدة بالنزول إلى الحديقة، فتقدم بتردد من الحارس الذي كان يقف على باب غرفته فقال والخوف يعثّر لسانه: أتسمح لي يا سيدي بالنزول إلى الحديقة؟

فأجاب الحارس بصوت خشن: لقد سمح الزعيم بذلك. يمكنك الذهاب.

وما هي إلّا دقائق حتى كان صابر يفترش الأرض بين الأزهار لينعش صدره بعبيرها الفوّاح مغمضاً عينيه ليعيش حلماً ورديا جميلاً. وفجأة أحسّ وكأن الشمس قد أفلت، ففتح عينيه على عجل ليجد الزعيم واقفاً أمامه وقد رسم ابتسامة السخرية والاستهزاء، تلك الابتسامة التي زادت وجهه قبحاً وقسوة. ثم قال ويده على لحيته: أتعجبك هذه الأزهار يا صابر؟ أراد أن يندفع بالإجابة بأن جداً يا سيدي!

لكنه تذكر الأرنب المسكين وما جرى له بعدها فتريث وقال: قليلاً يا سيدي. أدرك الزعيم ما يدور في خلد الصبي فقال: أنا لا أرى فيها غير مخلوقات ضعيفة عاجزة، وأنا لا أحب الضعفاء، لذا اسحقها بقدميك يا صابر! هيا!

أحس صابر لحظتها أن دمه قد تجمد في عروقه، فذهل واقفاً بلا حراك، لكن صوت الزعيم جاء كالرعد الصاعق: قلت لك اسحقها يا صابر! أم أنك تحتاج إلى مزيد من التأديب؟

رجف الطفل المسكين رجفة اهتزّ لها بدنه ثم هزّ رأسه نافياً وراح يقفز فوق الأزهار يسحقها، فهربت الفراشات والطيور بعيداً فزعاً بينما سحقت الأزهار وانطفأ عبيرها! دخل صابر في نوبة من البكاء الحارق، عندها رفع الزعيم صابر عالياً وقال له بينما كانت عيناه تشتاطان قسوة: البكاء شعار الضعفاء ولا أسمح به أبدا، هل هذا مفهوم؟ ثم رمى به أرضاً وقال: اذهب إلى غرفتك أيها الجرذ الحقير. فعاد صابر أدراجه مسرعا إلى غرفته بينما كان صوت الزعيم لا يزال يتردد صداه في أُذنيه الصغيرتين.

توالت الأيام تباعاً والصبي صابر حاله كحال فأر صغير حُبس في دولاب وما عليه إلّا أن يركض مسرعاً ليتمكن من تحريك هذا الدولاب. لقد قبع تحت ظلم ذلك الزعيم الذي كان كمن انتزع قلبه واستبدله بحجر صلب لا يلين خالٍ من المشاعر. لقد كانت غاية الزعيم أن يخلق من ذلك الطفل الوديع رجلاً صلباً لا يعرف الرأفة والرحمة،

أن يجعله متعطشاً للدماء محباً للحروب والانتصارات، لذلك فقد حرص على أن ينال وعلى الرغم من صغر سنه تدريباً عسكرياً مكثفاً أثقل جسده الصغير، فقد كانت أيامه تنقضي بحمل السيف واستعمال القوس والنشاب، كان يمارس شتى الرياضات حتى غدا سباحاً ماهراً وعدّاءً سريعاً.

ومع توالي الأعوام، غدا صابر شاباً وسيماً مفتول العضلات ترتسم على وجهه الأسمر علامات الجلد والقوة، لقد كان مقرباً من الزعيم الذي لم يكن يفوّت يوماً إلّا وخاض فيه مع صابر نزالاً بالسيف ليشرف بذلك على لياقته وقوته.

في أحد الأيام الربيعية، كان الهواء عليلاً ساحراً، والسماء صافية كأنها شاشة نقية تتباهى بزرقتها أمام الأرض التي افترشت الحشائش والزهور. لم يكن يعترض سكون الطبيعة غير صليل السيوف وهي تتراشق في نزالات وديّة حيث كان صابر بطلاً فيها. لقد كان منهمكاً كعادته بالتدريب، لكن صوت الزعيم جذبه فالتفت ليجد الزعيم قد ارتسمت على وجهه تلك النظرة القديمة؛ نظرة الاستهزاء والسخرية! لقد مرّ وقت طويل لم ير فيه صابر تلك النظرة! ارتبك قليلاً وهو يتجه نحو الزعيم بخطوات بطيئة تحاول تفحص الموقف، لقد كان الزعيم يحمل سوطاً غليظاً أسوداً فاحم اللون، وما أن اقترب صابر منه حتى بادر الزعيم بالقول: هل ترى هذا السوط يا صابر؟ وهل ترى هذا الخادم؟ اضربه به!

وما أن أنهى الزعيم كلماته تلك حتى مدّ يده مناوشاً السوط لصابر الذي لم يستغرق وقتاً للتفكير بالأمر، أخذ السوط وانهمر يضرب ذلك الخادم الذي راح يتلوّى على الأرض من شدة الألم بينما راحت أنّاته تتعالى في السماء. استمر صابر بضربه حتى أخذت قطرات العرق تنساب من جبينه بينما أُغمي على الخادم المسكين من شدة الألم، ومع ذلك لم يتوقف صابر حتى سمع صوت الزعيم مصفقاً أن كفى هذا يا صابر، قد أحسنت صنعاً! يمكنني الآن الاعتماد عليك في معاركي!

عاد صابر بعدها أدراجه إلى غرفته، وقعت عيناه على المرآة الكبيرة المعلقة على جدار الغرفة، راح يتفحص ملامحه وكأن دهراً مضى عليه دون أن يراها! لم يتبق لصابر من ماضيه سوى لون بشرته السمراء واسمه الذي يحمله " صابر" حتى لغته الأم لم يعد يتحدثها فقد انصقل لسانه بلغة أخرى كما انصقلت طباعه بطباع الزعيم. أما عن ذكرياته وماضيه فقد كان الزمن كفيلاً بمحو الكثير! فلا يوجد عنده مكان للخوف أو الخنوع، فالرجال الأقوياء لا يخنعون ولا يضعفون ولا يرق قلبهم، لم يكن للحب مكان في قلبه، أما النساء فقد خلقن للمتعة المؤقتة، فهن غنائم يُحصل عليها بعد الانتصار في المعارك، هذا ما تعلمه على يد الزعيم!

كان نفوذ جيش الشمال يزداد مع الأعوام، وأصبح صابر الرجل الثاني بعد الزعيم الذي كان قد أشركه في معاركه وانتصاراته فقد كان صابر يقاتل بشراسة ويتلذذ بالانتصارات واحدة بعد الأخرى، ويفرح بتسيير

الأسرى ليكونوا خدماً وعبيداً، حتى عُرف صابر بين الأقوام "بابن الزعيم الذي لا يرحم"!

ومع مضي الأيام، تمكن المرض من جسد الزعيم على الرغم من صلابته غير إن الهرم لا دواء له، فغدا تعباً هزلاً لا يقو على مغادرة فراشه. وفي ذات يوم بارد شديد البرودة، تراصّت فيه أوراق الأشِجار محاولة صدّ الرياح العاتية التي راحت تضرب بكفيّها كل ما تمر به. هناك قبع الزعيم في فراشه وضوء الشموع يزيد من صفرة وجهه، بدا صوته ضعيفاً هزيلاً بينما راح يحدّث صابر الذي جلس قرب سريره مستمعاً: اسمع يا صابر، ها أنا ذا مودّع هذه الدنيا وأنا فخور بما صنعت في حياتي، فلم أعرف الخوف يوماً ولم يهزمني أحد، والأهم من ذلك أني صنعت منك رجلاً قادراً على أن يخلفني في مسيرتي. هزّ صابر رأسه موافقاً والجلادة لا تفارقه فاستطرق الزعيم: هناك اختبار أخير لك يا صابر، أريدك أن تحرق جثتي بعد موتي، هل هذا واضح؟

لك ذلك يا سيدي.

لم تمض بعدها سوى ساعات قليلة حتى زفر الزعيم زفراته الأخيرة بين يدي صابر الذي لم يجد دموعاً في عينيه ليذرفها، بل كانت الجلادة والبأس سيدا الموقف! رفع الجثة لينفذ الوصيّة بإحراقها، راح ينظر إلى النيران الملتهبة التي أخذت تأكل الجسد بشراهة حتى أتت عليه، أدار رأسه وقد شعر بإحساس غريب، لقد مات الزعيم، ذلك الرجل الجبّار

الذي طالما ارتعدت له أوصاله عند سماع صوته، لقد مات الرجل الذي هزّ بقاع العالم بسيفه، ها هو ذا يحترق ويذوب بألسنة النيران الأبدية.

تسلّم صابر زمام الحكم في شرق البلاد وغربها، واستمر بقيادة المعارك المتتابعة ليحقق انتصارات جديدة وغنائم كبيرة، فهو قائد الجيش الذي لا يقهر الذي ترتعد الجيوش عند لقائه.

وفي أحد أيام الصيف الحارقة، كان صابر يقود جيشه في إحدى معاركه في صحار بعيدة، شحّت فيها المياه وساد اللون الأصفر الشاحب على مروج تلك البلاد التي أنهكتها الحروب، فما كان من صابر وجيشه إلّا أن استولوا على القرى المجاورة فارضين على من بقي على قيد الحياة دفع الجزية مما قد يملكون من مال أو أنعام. وبينما كان صابر يزمجر أمام الأسرى الذين لطالما اعتبرهم عبيداً بائسين لا يستحقون الحياة، لمح طفلاً صغيراً رشيقاً كان قد أجهش بالبكاء وقد روّعه منظر الجنود والأسلحة والجثث. اقترب صابر من ذلك الفتى ومن دون تفكير وجد نفسه يجثو على ركبتيه ويحدق عن كثب بذلك الوجه الأسمر الدائري الذي راح يكفكف دموعه قائلاً: أنا أكره الحرب سيدي ! هل تكرهها أنت أيضاً؟

كانت عبارته أشبه بسهم انطلق بسرعة ليعبر بوابة الذكريات ويخترق تلك الصورة التي كان صابر قد نساها! صورة ذلك الطفل الصغير الذي بدأت حكايته عندما قال: أكره الحرب سيدي! أعاد الطفل سؤاله: أتكره الحرب سيدي كما أكرهها؟ حينها تصدع قناع الصلابة

الذي كان يرتديه صابر والذي لم يمتلك إلّا أن احتضن ذلك الطفل والجميع حوله في ذهول مما يجري!

لقد رأى صابر نفسه في ذلك الصبي، راح يحدّق فيمن كان يراهم عبيداً ضعفاء، تذكر قريته بما فيها من نخيل وحقول! تذكر بيته، أمه وأباه! أحسّ برعشة تسري في جسده فقام وترجّل فرسه وانطلق مسرعاً إلى لا مقصد، راح الفرس يعدو بسرعة والهواء الحار يلطم ذاك الجبين الأسمر الذي استيقظ بعد طول ركود، راحت الذكريات تتراقص أمام ناظريه، وبعد مسافة ليست بالقليلة، توقف الفرس عند حافة نهر فهوى صابر أرضاً، بدا متعباً مرهقاً، راح ينظر إلى انعكاس صورته في الماء، سمع نداءً رقيقاً لصوت لطالما أحبه وافتقده، كان صوت أمه يتردد في الأجواء منادياً: هلمّ إليّ يا صابر فقد اشتقت إليك يا ولدي. اغترف غرفة من الماء ليُبلّ بها وجهه فتراءت له يداه مملوءة بالدماء، كانت دماء الأبرياء التي سالت بسببه، رمى الماء جانباً، وضع يديه على رأسه وراح يعصره وكأنه يريد انتزاع ذكرياته والقائها في النهر، حاول صمّ أذنيه حتى لا يسمع أصوات النحيب والعويل التي كانت تتردد في رأسه. شعر لحظتها بالضعف والعجز، فلم يجد سبيلاً للهروب. ما كان منه إلّا أن استلّ سيفه وعلى عجل غرسه في قلبه فسالت دماؤه لتمتزج مع مياه النهر الذي كان هديره يحمل صدى ذلك الصوت المنادي" أكره الحرب سيدي!"

حبيسة الذكريات

مضى على احتجازه لي في ذاكرته ما يزيد على ثلاثة أعوام، أيام طويلة عشتها هناك تتخبطني أفكاره المشوشة وأحلامه الحزينة. كم بدا يائسا وهو يحلم بخروجي من تلك الحفرة التي أودعني فيها بسلام بعدما روى ترابها دموعا حارة. بدا وكأنه ينتظر حصول معجزة ما. كم وددت تذكيره بأن الموتى لا يستيقظون من نومهم، ذاك النوم الأبدي الذي لم أختره

كانت دموعه على ذكراي تمزقني، سلبتني الراحة بعدما عجزت عن الهروب من زنزانة ذكرياته التي أحكم صَونها. أتطلع إلى تلك الفتحة الضيقة فيها وأحلم بالهروب منها. كنت أتمنى الهروب ليس ضجرا من أحلامه ولا سقما من أوجاعه لكنني تمنيت له العيش بسلام. لم تكن ارادتي الرحيل يوم زفافنا، لم أكن من جعل عجلة المركبة تنفجر غاضبة لتنقلب بِنَا فألون فستان زفافي ليصبح مخضبا بالأحمر .. كم أحببت الأحمر من زهورك التي طالما أهديتني!

لا تلمني يا حبيبي إذ عجلت الرحيل، لم يمهلني القدر! كم تمنيت لو أستعير بعضا من لحظات عمري الماضية فأودعك فيها فترتشف عيناي من مقلتيك دواء لجراحاتي.

أعترف إنني كنت كثيرة الغيرة، ربما كنت أغار من النسمات التي تغازل وجنتيك ومن فنجان القهوة الذي تستمتع بارتشافه أو حتى من الغطاء الذي يدثرك. كنت أخشى أن يفتر حبي في قلبك أو يغزوه حب جديد. لا أعرف كيف أبوح لك بأمنيتي الوحيدة الآن وأنا مقيدة في ذاكرتك؟ بت أصلي متمنية لك الخلاص من ذكراي، أن تفتح قلبك لحب جديد، أن تحيا وتعيش بعيدا عن ماض بات يكبلك ويمنعك من المضي نحو الحياة. أنا حبيسة ذكرياتك المعذبة. أطلق سراحي يا حبيبي وأبدأ عمرا جديدا. دعني أعبر نفق الأحلام ذاك وأعدك أن أبقي لك بعضا من أثري.

أردت التغيير ولكن!

علمت إنني حظيت بشخصية متمردة منذ صغري، كنت ذلك النوع من الأطفال الذي لا يرضى الانصياع للأوامر إلا إن ارتأيت الصواب فيما أقوم به. لم أقتنع يوما بنظرية السير مع القطيع، لم أعتبر نفسي نعجة في يوم من الأيام لأنقاد وراء المجتمع. فضلت أن أبني مملكتي الفكرية الخاصة وإن بدت غريبة الأطوار في بعض الأحيان، قلدت نفسي المُلك فرحت أضع لائحة القوانين الخاصة بي. لم أنكر كوني جزءا من مجتمع قد لا تعجبه نظرياتي الفلسفية، حرصت على الحفاظ على مسافات أمان بيني وبينه، بدت طباعي المتمردة مصدرا للمشاكل في كثير من الأحيان، لم يعجبني سير العديد من المسلّمات في الحياة؛ لم أكن أستسيغ نظرة المجتمع للمرأة إذ اعتبرها ضعيفة بحاجة إلى نصفها الثاني والذي يكاد يكون ظله -وإن كان بائسا-أفضل من ظل حائط!

كرهت التصفيق لمن لا يستحق التصفيق، كم قرأت العبودية في عيون المتسلقين المرائين الذين لا يضرهم لعق الأحذية في سبيل الارتقاء بسلم الحياة! عجبت من تلك القوانين الميتة التي لا سبيل لإنعاشها ولو رويت سيلا من دماء من يحاول التغيير فيها. كنت على يقين إن الظروف هي ما تدعو المخلوقات على اختلافها إلى سلك

سلوك دون آخر. فكيف للسارق أن يكون سارقا إن نشأ في بيئة تذم السرقة؟ وكيف للكاذب أن يكذب إن نهي عن ذلك منذ الصغر؟

وكيف للسياسي أن يخذل الشعب إن تعلم حب الوطن؟

كان القدر قد حباني بثروة طائلة ساعدتني على الاستقلال عمن حولي، قصر بعيد في أطراف المدينة، محاط ببستان مترامي الأطراف بدا كغابة نضرة لها شمس مختلفة عن باقي الشموس. أدركت أن في هجر العالم بما فيه من ملذات كاذبة راحة في نفسي المتمردة، لم أحتج لمن يساعدني في تدبير شؤوني، ربما كان ذلك شكلا من أشكال التمرد في نظر أصحاب الأموال، أردت لنفسي أن تعتمد على ذاتها في كل شيء. شغلتها بتدبير أمور المزرعة والقصر اللذين استنزفا وقتي.

كانت تلك الأوقات بمثابة هدنة مع نفسي المتمردة، سرعان ما شعرت بالحنين لتلك الصراعات النفسية التي تضطرم في داخلي إن تمردت على ما هو مألوف، كانت تلك الصراعات كفيلة دوما في توليد شعور من المتعة واللذة يجعلني مدمنة عليها.

كنت عاجزة هذه المرة، لم أجد ما أتمرد عليه وأنا قابعة في ذلك الفضاء المحصن، شعرت بضيق راح يطالب عقلي بفكرة مجنونة جديدة، سرعان ما اهتديت لواحدة. حددت هدفي، أردت إنجاح تجربتي بامتياز، قررت تربية شبل لا يتجاوز عمره الأيام، فقد أمه لحظة خروجه إلى هذه الدنيا، نذرت نفسي للعناية به،

كانت كفي أول ما تحسسه من جسدي وأنا أحمله بين ذراعي وأضمه بقوة إلى صدري أودعته كل الحنان الذي قد تخبئه أنثى في قلبها، كانت عيناه الخضراوين فائقتا الجمال، تتابع ابتسامتي المطبوعة على شفتي بلا ملل وأنا أرضعه الحليب الدافئ. تعود النوم إلى جانبي على ذات السرير. لا يمل من مداعبتي إن أبديت كسلا وتململت في سريري متناسية بزوغ الشمس.

أردت تغيير الطبيعة! أحببت أن يكون شبلي أسدا مميزا، أسد لا يأكل اللحم! لم أحضر إلى بيتي لحما للطهي مذ وطئت قدمه عتبة بابي، حرمت اللحم على معدتي قبل أن أحرمه عليه، كانت دهشتي كبيرة وأنا أشاهده يستمتع بأكل التفاح والعنب، بدا شبلا مطيعا رافقني أينما حللت. كنت أراقبه بشغف وأنا أرى تجربتي تؤتي أكلها في ذلك المخلوق اللطيف المسالم الذي كان سيصبح وحشا لا بد من الحجر عليه داخل سور ذي أعمدة مرتفعة في إحدى حدائق الحيوان اللئيمة!

كم كانت فرحتي عظيمة وأنا أراه يكبر يوما بعد آخر، ازداد وزنه بشكل كبير، لم أعد قادرة على حمله بعد الآن، لكنه كان لا يزال يشاركني سريري، يستشعر كفي التي تمده بالطمأنينة ما إن تتوغل في غياهب شعره الذهبي الكثيف.

بدا يوما مختلفا، لم يرغب بتناول حساء الخضار الذي طالما أحبه، بدا متوترا، لم تسعفه مداعبتي لوجهه الذي علته قسمات من الألم، أصابتني الحيرة والقلق، أيكون ليثي مريضا يحتاج إلى الدواء؟ لم تكن حرارته مرتفعة، لم تظهر عليه بوادر المرض أبدا. توالت الأيام وليثي لا يزال غائبا عني وإن كان يشاركني المنزل، لم يعد يجلس إلى جواري، بدا راغبا بالنوم بعيدا عن سريري الذي طالما احتضنه. بدا متمردا على الأطعمة التي لم يعرف في حياته غيرها.

اعتصر قلبي ألما وأنا أراه يهزل ويضعف، لم تعد عيناه تشعان نضارة كما كانتا في السابق، بدا كمن يتجنب النظر في عيني، تلك اللغة التي اعتدنا التواصل من خلالها باتت غريبة عنه، شعرت بالوحدة والخوف، كنت خائفة على ذلك الليث الذي شغف به قلبي وشغل حياتي حتى تعدا كونه اختبارا وضعته لتأكيد فرضية ما، كان إحساسا غريبا ولدته تلك الحقيقة التي جعلت مني وحشا لئيما يحاول الحصول على لذة مزيفة تلبية لروح التمرد في داخله، كم بدوت حمقاء لحظة دخوله عليّ وأنا منشغلة بكتابة بعض ملاحظاتي التي عملت على تدوينها بشكل يومي مذ احتضنته شبلا رضيعا.

توقفت عن الكتابة وأنا أتفحص وجهه، كان غاضبا على الرغم من النحول الذي أصابه، أسبوع كامل لم يذق فيه طعاما! يبدو إن ساعة الهيجان قد آنت أخيرا، تقدم بخطوات ثابتة قاطعا البهو الطويل، لم تزل الأعين ملتقية. توقف أمامي كأنه يقدم رسالة اعتذار

مسبق، مددت كفي ألاطف وجهه، تلك الكف التي طالما ربتت على رأسه، أخذ نفسا عميقا شعرت بزفيره الحار يلفح وجهي، أخرج لسانه وعلق كفي ببطء شديد تباطأت معه دقات قلبي، بدا منظره مثيرا للشفقة وهو يستنشق رائحة اللحم للمرة الأولى في حياته، بدا متلذذا بطعم حبات العرق التي غمرت كفي، علمت إنها ستكون لحظاتي الأخيرة، وددت إنهاء ملاحظاتي فكتبت على عجل بينما كتمت فزعي وكأنني أحاول التمرد على الخوف في لحظاتي الأخيرة:

لم تشأ الطبيعة أن تذعن لتجربتي، ولم تشأ أن تتحول فرضيتي إلى نظرية. قد يمكن لرياح التمرد أن تحدث بعض التغيير لكنها لا تملك فعل المعجزات، سنبدو حمقى إن أصرينا على ذلك.

نظرت إلى الليث الذي كان لعابه يتقاطر من بين أنيابه، بدت معدته مضطربة تتضور جوعا، تقدم نحوي باحثا عن اللحم الطازج، زأر معلنا نهايتي.

عندما احتضنتنا الأمواج يوما

كان يوما صيفيّا شديد الحرارة، رحنا نلوذ بالبحر هربا من سياط الشمس الغاضبة. كنت لا أزال طفلة لم تتجاوز العاشرة. أذكر الشاطئ المزدحم بتلك الوجوه الباسمة التي استطاعت تناسي حرارة الطقس وسط تلك الأجواء العائلية المريحة.

بدت الأمواج مشاغبة وهي تدغدغ قدمي الحافيتين اللتين كانتا تخشيان التوغل في المياه. كانت مياها باردة، لم أتردد من التربع على الرمال قريبا من ذلك الخط الذي كانت الأمواج تحاول في كل مرة الوصول إليه وكأنه خط النهاية الذي يعلن فوزها إن هي تجاوزته، كانت تنجح حينا ببلوغه وتفشل أحيانا.

لا أذكر كم الوقت الذي قضيته بصحبة والديّ اللذين اكتفيا بالجلوس على ذلك الكرسي المريح تحت مظلة كبيرة بينما بديا مستمتعين بالكتاب الذي حمله كل منهما. كنت أشعر بنظراتهما التي كانت تتبعني على الرغم من كل شيء.

كانت لحظة غريبة ارتجفت لها الأبدان وارتبكت معها البسمات التي خلفت أفواها فاغرة، تلك اللحظة التي اختفت الشمس فيها على حين غرة بعدما توارت خلف سحابة سوداء داكنة وكأن السماء أعلنت الحداد فجأة! كانت الأعناق ممتدة نحو تلك الغيمة باحثة عن الشمس الهاربة سمعت صوتا طفوليا تردد صداه في السماء: على هذا الشاطئ رسا مركبنا المحطم، على هذه الأمواج الوديعة حملت أجسادنا. كنت أحب البحر والحياة. لفظتنا تلك العاصفة التي لم ترحم أحلامنا بالهجرة، لم تمهلنا الأمواج فرصة للعبور إلى تلك البلاد التي رحلنا إليها كارهين بعد أن مزقتنا الحروب.

تبدد الصوت في الفراغ، هبت نسمات باردة أزاحت الغيمة الدخيلة، عادت الشمس للتربع عرشها في كبد السماء.

قلبت نظري في الوجوه، بدا كل شيء طبيعيا، أدركت أنه صوت لم تسمعه غير أذني! اقتربت من المياه، غرفت منها بقدر ما تستطيع كفي حمله، نظرت إلى تلك القطرات المتساقطة، انتبهت إلى دموعي التي اختلطت بالماء. تربعت الرمال مرة أخرى، حفرت حفرة، لم أعرف ماذا أفعل بها؟ أودعتها دموعي وانطلقت باحثة عن حضن أمي!

في أحضان الحمى

أذكر أن جسدي كان ملتهبا من تلك الحمى العنيدة التي استباحت عروقي وراحت تعبث بدمائي مؤججة لأوجاع عجز الدواء عن كبحها. سرعان ما خارت قوى ذلك الجسد بعدما سجيّ على سرير في غرفة من غرف المشفى. أذكر أن الحمى كانت عصية على الكمادات الباردة التي لم تكل أمي المرابطة على كرسيها إلى جانبي من وضعها تباعا على جبيني الذي تحول لونه إلى حمرة قانية.

شعرت بطاقة تدفقت في أوصالي جعلتني أنطلق مسرعة إلى الشارع. وجدت وجنتي تتبعان ذلك النسيم العذب الذي راح ينعشهما بدغدغاته المشاكسة. بدت شوارع المدينة مختلفة عما ألفته من قبل، لم أكن لأخطئ مدينتي أبدا لكنها بدت غير تلك التي تركتها قبل يومين عندما أصابتني الحمى!

كانت شوارعها نظيفة للغاية، بدت كمرآة راحت تعكس أشعة الشمس متباهية بجمالها، لم تكن حاويات القمامة متخمة كما كانت دوما، ولم تكن أكياس القمامة مرتعا للقطط والكلاب السائبة! أصابتني الحيرة من أولئك الذين صادفتهم في طريقي، بدا البشر مختلفون جدا، الابتسامة تعلو الوجوه بينما لم ينكفئوا يتبادلون

التحية مع كل من يصادفهم. وجدت نفسي مشدوهة وأنا أبحث عن ذلك الوجوم والعبوس الذي كان يلف المدينة بسكانها!

وجدت قدماي تقوداني إلى ذلك الركن من الشارع حيث بقالة العم محمود، ذلك الرجل الذي عرف دوما بقسوة قلبه وتطفيفه للميزان، بدا مختلفا هو الآخر وأنا أشاهده بأم عيني يغدق على المتبضعين بما يزيد عن حاجتهم من الخضار وهو يبتسم ويقول: هذه على حسابي بالهناء والشفاء.

تابعت سيري بينما لا أزال أقلب كل ما تقع عليه عيناي غير مصدقة. وجدت الناس يتجمهرون حول منصة قريبة، كان فضولي ما دفعني لمعرفة سبب تجمهرهم، اتسعت عيناي عجبا وأنا أرى ذلك الرجل ذي البطن المنتفخ، إنه النائب الذي طالما تعثرت بصوره التي احتلت الشوارع أثناء الحملة الانتخابية والذي سرعان ما اختفى عن الأنظار بعدما فاز بالانتخابات. وجدته يوزع أكياسا من الطحين والأرز تماما مثلما وعد ناخبيه قبلا!

سرت طويلا، بحثت عن المتسولين والجياع واللصوص، لم أفلح في العثور على أي منهم، بدت مدينتنا مثالية بكل شيء. لم تنته دهشتي عند ذلك الحد أبدا. توجهت حواسي نحو مصدر رائحة بعينها، لم أستغرق وقتا لأدرك أنها رائحة دخان نفاذة اخترقت أنفي بجدارة، سرعان ما انتبهت إلى ألسنة النيران المتصاعدة من فرن احتل قلب

المدينة، كان فرنا عظيما لم تشهد عيناي مثيلا له، خط على قاعدته بخط كبير:" احرق جوازك هنا" لم أفهم ما قرأته فأعدت قراءته ثانية وثالثة من دون جدوى! رأيت أناسا يتقربون من فوهة الفرن يلقون بجوازات سفرهم الأحمر منها والأخضر والأزرق! لم أستطع كتم صرختي عند ذلك الحد فاندفعت الكلمات من فمي بعدما عجزت عن احتجازها:

أجننتم؟ ماذا تفعلون؟

كانت الابتسامة لا تزال مطبوعة على الوجوه، كل الوجوه! لم ألق جوابا، لكن رجلا مر بجانبي قال بهدوء بعدما شعر بضياعي: وما حاجتنا لجوازات سفر بعدما ألغيت الحدود بين البلاد؟ لم تعد هناك حواجز تفرق بين أرض وأخرى، لسنا بحاجة إلى تلك الجوازات المقيتة، بات من اليسير التنقل في بقاع الله المختلفة.

أودعني بابتسامة وانصرف لشأنه وأنا أنقل نظراتي بين الفرن وتلك الوجوه المطمئنة الباسمة. أحسست بالفرحة تلفني وتطبع الابتسامة على وجهي الذي تحول إلى وجه باسم كما باقي الوجوه!

شعرت بوخز إبرة استطاعت بسهولة اختراق جسدي الهزيل المثقل بالحمى، سمعت صوت أمي الحنون:

إنها تهذي يا دكتور!

لا بأس عليها، ستكون هذه الحقنة كفيلة في خفض حرارتها.

سمعت خطوات أمي وهي تشيع الدكتور إلى باب الغرفة مودعة بينما عجزلساني عن الصراخ: أرجوكم اتركوني في أحضان الحمى!

احتضار نخلة

كانت الآلام تعتصر أوصالي، تشتت تفكيري تكاد تحبس الهواء الذي أتنفسه. كنت أصارع الأيام التي بدت بطيئة تحمل رياحا صفراء لا تفتأ تعصف بسعفاتي التي بدت هزيلة صفراء هي الأخرى.

كنت أراقب جسدي الذي هرم وتلك التجاعيد التي لم أكن أتخيل أن تغزوني عنوة فلا أكاد أملك لنفسي نفعا في مواجهتها. لا زلت أذكر المرة الأولى التي وقعت فيها عيناي على هذه الحديقة الفاتنة، كنت لا أزال فسيلة صغيرة، حملني صاحب البيت بين كفيه بدلال بعدما صب الحنان من عينيه كما يصب التراب حول جذوري الغضة. بدا فخورا بتلك الفسيلة التي كان يعلم مسبقا إنها سليلة نخلات باسقات عرفن بسخاء عطائهن على مدى الأعوام.

كنت أقف بفرح يخالطه بعض الغرور وأنا أشاهد الأطفال حولي يتحلقون بسعادة، يلعبون ويمرحون، كم وددت لو أملك ساقين فأشاركهم ذلك اللهو البريء!

تعاقبت الفصول وأنا لا أزال رابضة هناك، شعرت بارتفاع قامتي عندما بات وصول الأطفال إلى سعفاتي أمرا مستحيلا، كنت فرحة وأنا أراهم يحاول تسلق جذعي الذي اكتسب صلابة يوما بعد آخر، فتراهم ينجحون حينا ويفشلون أحيانا كثيرة.

كان شعورا رائعا وأنا أحس بتلك العثاكيل المتدلية وكأنها أقراط زينت أذن حسناء راحت تتمايل مع نسمات الهواء اللطيفة. لا أنسى وجه سيدي الذي غمرته مشاعر الفرح والامتنان وأنا أصب عطائي بين يديه رطبا فاخرا حلو المذاق. لم أكن لأنكر تلك التربة المعطاء الغنية التي رحبت بجذوري التي توغلت بين رحابها بلا منازع.

لم أحب الخريف يوما، لطالما أعلن فتور الشمس التي لا أنفك أعشقها، بدا خريفا عدائيا ذلك الذي جلب المرض إلى جسدي، دواب زاحفة لا تكاد تراها العين، تسللت بكل خبث بعدما أحدثت نخورا وفجوات، راحت تنخر في لحائي، تجرأت على ذلك الجذع الذي كان صراخه مخنوقا. كم حسدت تلك الأصوات التي يتمكن البشر من البوح من خلالها بما يشعرون. وددت لو بإمكاني إخبار سيدي بتلك الآفات التي تهدد حبيبته على منأى غير بعيد منه.

لم يمهلني المرض طويلا حتى بت عاجزة عن مقاومته، أعلنت راية الاستسلام بعدما باتت علاماته واضحة على تلك السعفات الهزيلات وذلك الجذع المتصدع. انفض الأطفال من حولي بعدما أرعبتهم الدواب وقد تفشى خبر مرضي بينهم فباتوا يخافون الاقتراب من تلك النخلة المسكونة بالمرض. سمعت أحدهم يحذر الآخرين قائلا:

إن لامستم النخلة فستصابون بالعدوى وتهرمون كما هرمت!

رأيتهم ينفضون مبتعدين هلعا، كم شعرت بالوحدة بعدما أفل نجمي وشحبت سمائي. شعرت بيد لطيفة ترتب على جسدي المألوم، بتثاقل نظرت في تلك العينين الحزينتين، كانتا ذات العينين اللتين طالما أحاطتني بالحب والدلال. بدا سيدي حزينا دامي القلب وهو يحاول الاعتذار مني، جلس على الأرض وأسند رأسه على جذعي كما كان يفعل دوما، بدا مختلفا هذه المرة، انكب باكيا وكأنه ينصب العزاء على حبيب فقده، قطع صوته نياط قلبي التعب. نهض مترنحا وهو يعاين الضرر الذي أصابني متحسرا على أيامنا التي خلت. رفع شيئا لم أتبينه عاليا في السماء، بدا لامعا بعد أن لملم أشعة الشمس بكل ثقة، كانت لحظات قليلة جدا حتى شعرت بذلك الشيء يهوي بقوة على أسفل جذعي، أدركت الأمر أخيرا! ها هو الفأس يغدو سيد الموقف بعدما راح سيدي يضربني به مرة بعد أخرى. كانت أوجاعا جديدة تلك التي شعرت بها لحظتها، لم تكن مجرد آلام تصاحب ضرب الفأس، بل كان ذلك الشعور بالاقتلاع عن أرض لم أعرف غيرها، كتمت آهاتي وأنا أتطلع في وجه سيدي، كان الرعب قد تملكني، أردت توديع تلك القسمات الباكية، شعرت بألمه فكتمت آلامي.

لم يطل الأمر طويلا، إذ لم يكن بمقدور ذلك الجسد الهزيل المهتريء الصمود طويلا أمام مخالب الفأس الحادة، شعرت بدوار أصابني وأنا أهوي أرضا، أدركت كم كانت قامتي طويلة وأنا أحتضن العشب الذي افترشته الأرض، شعرت براحة فجائية، أصابتني برودة

دبت في أوصالي، لم أعد أستطيع النظر، يبدو الظلام منتشرا في كل مكان، ظننت إن الأمر قد انتهى بعدما أودعت الحياة ولكن مهلا! لا تزال جذوري تعانق التراب، لا زلت أشعر برطوبة التربة العذبة، لا زلت قادرة على تمييز صوت بكاء سيدي! أدركت لحظتها حقيقة موت بدني بينما لا زالت روحي مغروسة في الأعماق!

الفهرس

علّ الموج يجمعنا	٧
شظية في مسمار	١٢
في قلبي روح تحترق	١٦
فوبيا القطط	٢٢
لأنني مختلفة	٢٨
ضحايا الاستعباد	٣٤
سحور بالانتظار	٣٧
همسات بين الأنقاض	٤٢
حديث سيدة عجوز	٤٧
في دياري لست غريبة	٥٦
رفعت الأقلام	٦٣
كلمات منسية	٦٩
عندما تكون إنسانا	٧١
في ربوع لحن حزين	٧٦
أعين غاشية	٨٨
فقد نفسه حينما وجدها	٨٩
أيام معدودات	٩٣
جراحات	٩٥

المحطة	٩٧
موجة	٩٩
عالم كله سلالم	١٠١
أكره الحرب سيدي	١٠٤
حبيسة الذكريات	١٢٥
أردت التغيير ولكن!	١٢٧
عندما احتضنتنا الأمواج يوما	١٣٢
في أحضان الحمى	١٣٤
احتضار نخلة	١٣٨